chouaib halifi

شعيب حليفي

زمن الشاوية

رواية

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

زمن الشّاوية

زمن الشاوية

شعيب حليفي

رقم الإيداع القانوني: 2011 MO 0369

ردمك: 978-9954-515-33-4

الطبعة الثانية، 2011

تصميم الغلاف: التنوخي للنشر

حقوق الطبع محفوظة

التنوخي للطباعة والنشر والتوزيع

المشرف العام: سلطانة نايت داود

16 زنقة هيلسنكي، الطابق الأول – المحيط – الرباط

الهاتف: 90 60 54 0667 / الفاكس: 32 46 20 0537

Email: attannoukhi@gmail.com

Site: www.attannoukhi.net

تم طبع هذا الكتاب بمطبعة

Rabat Net Maroc

شارع الحسن الثاني. حي المنار

لحساب التنوخي للطباعة والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب. أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات. أو نقله بأي شكل من الأشكال. دون إذن مسبق من الناشر،

الرِّحلة، أو عشرُ نُقط من أجْل فهْم ما جَرى

قالَ ابن حَنبل: ثلاثة ليس لها أصل: التفسير والملاحم والمغازي.

قالَ الإمام الغزالي: اعلمْ أن من طلب المعاني من الألفاظ ضاع وهلك.

قالَ ابن الصائغ: اللفظ ريح لا تبقى. قيدها الكتابة.

-1-

كانَ فجرُ الشاوية نَديًّا هذه المرة على غير عادته، وهي اللحظة التي نَفَّذَ فيها «علي الشاوي» قراره بالرحيل، مُودِّعًا بذلك.. الزريبة والأغنام. فلم يحتفظ لنفسه إلا بعصاه التي سيهش بها على أحلامه.. بل على حلمه اليتيم.

تخلى عن صفة الراعي، سارح الدوار. حتى يخلو لرعي حلمه، آملا في العودة ظافرا من فاس، وجهة آماله، ويمسحَ زمنه القديم. مشطبا في نفس الوقت على النظرات الشامتة من بعض أهل القبيلة وهم ينادونه حينا بـ «عُليواتْ» أو السويرح، وحينا آخر بـ «لقرع» رغم كثافة شعره الأسود الذي تدلى على جبينه وقفاه حتى بات ضفيرة واحدة يسمونها قرنا.

دفعَ بخطوته الأولى في اتجاه ارتعاشةٍ لم يحس بها منذ زمن طويل، فيغتلي بداخله سهمانِ مُتناقضان... سهمٌ يجر طموحه إلى الأعلى في رحلته هذه، وسهم آخر مغموسٌ - حتى الإشباعِ - في الإحباطِ والندمِ والرهبةِ من عودته خالي الوفاض.. فيجد أن أهل الحلّ والعقد في الدّوار قد استغنوا عن خدماته نهائيا، واتخذوا لغنمهم سارحا جديدا.

كلما تذكر مثل هذه الهواجس التي تربك سكينته، يرفع بصره إلى السماء، متحسسا بشماله شحمة أذنه اليسرى، بعدها يخفض من بصره كمن يتفقد شيئا حوله تذكره فجأة.. قبل أن يُقيده سهو خفيف بقيود الشرود، وغُلالة من الحزن الأبيض الخفيف الراسي على ظاهر ملامحه. وكما هو الغيب المتربص خلف المفاجآت.. كذلك لا يستطيع أحد التخمين بلون هذا السهو.

- أنا لا أعرفُ مذاق الخيانة، ولم أفعل ما يفعله الرعاة غيري... يكذبون ويسرقون. النعجة تضع التوائم فلا يخبرون صاحبها إلا بواحد فقط... كما يحتالون ببيعهم الفحل السمين، واستبداله بآخر أقل سمنة

وثمنا.

سهمُ الندم يحاولُ أن يخذل خطوات عليّ، والتي لم تتجاوز، بعدُ، حقول الْزَامْزَه، فهو لمَ يَبُح لهم، حتى الآن، أين ذهب ذلك الصردي الذي تَوَحَّمت عليه أكثر من امرأة؟... كان فحلا عاليا ممشوق القوام، أبيض بسواد يختط نصف وجهه الأيمن.. وسواد دائري بالعين اليسرى كأنما يد روحانية وسمت بالكُحل عين الصردي الذي كان يبدو سعيدا على الدوام.

لم يقل لهم، في مساء عودته، من أيام ماطرة تدفقت فيها السماء بكل مياهها، لم يقل لهم كلاما غير أن يخصموا ثمنه من أجرته دون أن تخصم الحيرة من اشتعال طال أفئدة النساء أكثر من الرجال.

-2-

كان عليٌّ يرعى ما يزيد عن الثلاث مائة من الأغنام. كما دوَّنها على ظهر وباطن عصاه.. وقد جمعها من أهل الدوار الذين اعتادوا تسليم شيَّاههم لراع واحد، وهكذا فإن عليًّا يرعى تلك النعجة الجرباء العاقر للعجوز «هنية» والعشرة خرفان لغيرها، والخمسين للمقدم... إنه سارح الأسياد والعبيد في دوار أوْلاَدْ سْليمانْ التابع، حُكما، لقبائل المزامزة قلب الشاوية المنبسط.

- لم أميز أبدا بين نعاج مي فاطنة الكسيحة ونعاج الشيخ، أبدا لأن البكماء لا دخل لها في اختيار سادتها، مثلنا نحن لا دخل لنا في اختيار الشيخ والمقدم والسلطان.

وصل عليٌّ إلى الغابة لحظة شرعَ الفجر يُودعُ غبشه العالق على جبينه دون أن يُسقطَ الوساوسَ التي بدأت تسري في قلب ذلك الملتف في جلبابه إلى حدود الركبتين.

غيرَ أنَّ رؤيته للمزمزية آنَسَتْهُ - للحظة - وأسكنت من هواجسه قبل أن يرحل نحو تجرُّعات جديدة.

كانت المزمزية تدفع السبع عشرة نعجة برفق، خوفا من احتمال استنهاض

نوم الخراف الصغار التي مازالت تتثاءب.

- صباح الخير، (تقول له ثم تستطرد لمعاتبته بصوت خفيض) من أجل هذا لم تأت البارحة إلى الغابة... أتفعلها أسيدي علي إذن!

صوتها ندي به عتاب ودي ممزوج برقرقة تفضحها عينان واسعتان بهما سواد طبيعي آسر، يوحي لمن يسمع صوتها، أنه ستار خفيف، لحزن ضائع لا حدود لكوابيسه.

-3-

تعرف المزمزية أن أمها كانت قد تزوجت في مثل سنها الآن. الرابع عشرة، وتخمن، لأنها لم تجد جوابا شافيا. أن يكون والدها آنذاك في عمر علي الشاوي، بمعنى أنه يسبقها بخمس سنوات عظيمة.

كثيرا ما جلست، تحفرُ في ذاكرتها عن صورة أمها التي ماتت وتركتها في الثامنة من عمرها، مُخلفة لها أبا كسيحا تقوست عظام رجليه ويديه، وإن كان فصل الصيف رحيما به؛ وأخا لم يتجاوز الخامسة من عمره، ونعاجا ونوالة وزريبة وكانونا ومطمورة مهجورة وحمارا ورَكْوتين للماء، ودجاجات تائهات لم يستطعن تحديد وكر دائم لهن.

تستذكر أمها كيف كانت تقود الحياة مع أبيها... وذلك الشيء الساحر الذي كانت تقتنيه من العطار، فتمضغه ويتهلل وجه والدها... وعلى إثره تبيت المزمزية في الزريبة.

تشبه أمها في عينيها، في حزنها وقصرها المتوسط الذي يضفي على ضعف بنيتها خِفة وإحساسا بأنها شمعة، بها اصفرار يُخفي حياة تبحث عن ألوان صورتها المحتملة.

كلما جاءت تُكلم علي الشاوي تقول له سيدي علي. بصوت يُعبرعما

يختلج في نفسها نحوه، وذلك الشوق المشتعل الذي أحست به فجأة خارج ظلام الألفة التي قد تغطي، بل تمسح شرارات العشق الحارقة.

تحاول أن تتشبه بأمها التي كانت تقول لزوجها، والد المزمزية، سيدي.. ولأن عليًا يكبرها وتحسبه زوجها القريب، وتعجبها كثيرا بنيته الرجولية، فإنها تعامله كما كانت والدتها مع أبيها.

«سيدي عليّ شهمٌ وكريم، صادقٌ ذو نية واحدة، قامته المتوسطة توازي سمنته المتوسطة أيضا، لونه قمحي كلوْنِ كل أهل الشاوية وزمنهم، شعره المنسدل المظفور يبقى فاحما، شُعيراته غليظة وكثيفة مثل حاجبيه، أما وجهه فمستدير مثل عينيه، في حين أن أسنانه قد طولها اصفرار خفيف.

يلبس منذ أن عرفته - أي قبل سنتين - جلبابا صوفيا رمادي اللون، بدأ يسوَّدُ تدريجيا، يتحزم عليه بمجدول من الصوف، فيصل الجلباب إلى حدود الركبتين أو أسفل بقليل، ويبدو أنه يلبس ثوبا أبيض اللون أسفل الجلباب.

يحمل ،على الدوام، جِرابا بها حبل ومقص وقربة صغيرة، هي أصلا عبارة عن غشاء مرَّارة النعجة، التي أفرغت من ذلك السائل الأخضر المُر... حتى تُملأ بالقطران. أما زاده الدائم فمن الحليب والزمّيتة وبعض التمور إذا كانت متواجدة بكثرة مع القادمين من زاكورة والراشيدية أو الجنوب عموما.

لا يحب تربية الكلاب، لهذا فهو لا يرعى بكلب خلفه، أو أمامه، كما لا يهوى النوم بالنهار.

سيدي علي رجل حقيقي، وسارح أمين وشجاع».

-4-

قبل أيام قليلة على رحلته، كان علي قد باح للمزمزية بأنه سيغادر

الشاوية مؤقتا، دون أن يُفسر لها شيئا.. رغم المحبة الرصينة التي جمعتهُما منذ سنتين، كراعيين يبحثان عن الكلأ لأغنامهما.

لم يشأ، في ذلك الفجر الندي، أن يحول المشهد إلى ما فوق الندى. أو إلى وداع لم يألفه، فخطا خطواته الموالية بعدما نبهها أنه بعودته سيَخطبها من دوارهم بأولاد المسناوي ومن والدها الكسيح لتعيش معه بأولاد سليمان.

يعرف عنها كل شيء، أكثر بكثير مما يعرف عن نفسه، فقد وعَى - كما سيُخبر المزمزية في مساء كانت الريح فيه ستارا دافئا تدفع بما تبقى من خلجات النهار إلى حتف أكيد، وكانت الأغنام تستعيد قُبَلها من الأرض الخصيبة - وعى على عالم غامض لا بداية له.

أنا الآن أرى نفسي صغيرا جدا: أمشي على رجلي في جلباب أكبر مني، أتعثر من خلاله خلف رجل ضخم الجثة، حاف وعار إلا مما خفَّ وستر، إنه « بَّاخويا» كما يسميه أهل الدوار والحيوانات والملائكة والشياطين.. وهو السارح الرسمي للدوار، غير متزوج.

ينام في النوالة التي أنام فيها الآن، والتي هي في ملكية الدّوار، لم أكن أعرف نسبي إليه، لأني لم أفكر قط أن الناس تلد مثل البهائم... ولأني كنتُ أحيا في الضيق الذي هو أضيق من نوالة لا تسع حتى نصف جسم بَّاخويا، فيبقى نصفه الآخر، من قدميه، شاهدا على ذلك في الزريبة.

اعتقدتُ أن الله يصنع الناس ثم يضعها حيثما شاء أمانة... وها هو قد وضعني عند هذا الرجل الذي يربطني به الصمت.. أكثر من الكلام.

في صباحات فصل الشتاء يحملني نائما فأتردد قبل أن أسأله، لماذا لا

يتركني في النوالة؟ فيجيب هواجسي بأني أمانة عنده من الله، ولا يجوز أن يتركني وحدي لأنياب الذئاب تفترسني، فأتركه واتجه نحو معزتي لأرضع من لبنها ثم ألعب مع صغار الخرفان كلما كان الجو صحوا...

كان بَّاخويا لا يكلمني كثيرا، ومع الأيام الباردة اصفر لونه وتراجعت عيناه إلى داخل جمجمته فلم يقل لي إلا ما سيُحيِّرني حتى الآن.

ساق أغنامه ذات صباح - يقول لي كما لو أنه يقرأ عليَّ وصية مقدسة كتمها في نفق روحه... وها هي روحه قد باتت مهزوزة - وفي الغابة وجدني وليدا أحملق بعيني... فحملني، ثم تبنَّاني دون أن يُخبر أحدا من الدوار الذين كانوا يرتابون من سؤاله، اعتقادا منهم أن به مسًّا ما.

هكذا حكى لي ما كنت أعتقده عامًّا. ثم مات وتركني في الثانية عشر من عمري، وشاع بين الناس أنه أبي، وهو الذي أسماني باسم علي الشاوي.

والد مزعوم، ودوار صدَّق كل شيء لأن ذلك لا يمسه في شيء، ربما أكون ابن أحد الملائكة الساقطين!! فحتى الفقيه الذي قرأتُ عنده القرآن لخمس سنوات وشيئا من المقامة والخطبة والرحلة، كان يقول لي: كيف جئتَ لا تشبه أباك في شيء... وهو التائه عن كل شيء، عن قدميه لما ينسى إدخالهما إلى النوالة!

هذا الفقيه، الذي تحول إلى عطار سيصطادونه في العراصي، ويعود حماره شاهدا بدون لسان، فهو - رحمه الله - الذي أخذني من بَّاخويا بالقوة ليعلمني، وهو يفكر ألا يعطيه شيئا مقابل الإحدى عشرة نعجة التي يرعاها له.

خمس سنوات مقسومة إلى صباحات أمام علوم الفقيه وإلى عشيَّات مع باخويا خلف الأغنام على حواف أو وسط الغابة... وحينما مات

ودَّعتُ الفقيه، لأن نية الدوار قد فاضت في شخصي بإيعاز من الفقيه وقد تحمس لأكون سارحا أفارق ألواحه وحصيرته بنفس الحماس الذي أجلسني به في مسيده.

-5-

نحو فاس يلتفتُ قلبه وتشير عصاه وأقدامه التي حاول التذكر خذلها... لهذا كان ينسى كل شيء في الشاوية ويأمل في ما سيجده بفاس.

ينسى المزمزية بعينيها الصَّرديتين، وخديْها الورديين وحاجبيْها الخروبيين... ويرى بأحلامه هارون الرشيد وأبا زيد السرحاني وقمر الزمان وابن بطوطة.

يقشعرُّ شعوره بقدوم الليل عليه، وهو ما يزال بسهولة الشاوية في أولاد احْريز، بعد يوم كامل من المشي... توقف خلاله طوال الظهيرة والعصر لانفلات الحرارة من رسن الصهد وريح الشرقي الذي يُحول الهواء إلى رياح ساخنة وجافة تخنق كائنات الشاوية مثلما تخنقها حركات السيبة وعهودها المريرة.

في ليلته الأولى خارج نوالته والتي هي من تبن وقصب وتراب. سيختار التمدد في حوش لأحد الأولياء المعزولين، وهو يختبرُ يوميا كراماته أمام العزلة، داخل الحوش الدائري بأحجاره الناتئة وشجرة النبق الشائخة. وقد أوت كل الحشرات الباحثة عن شفاعة ولي آدمي يعيد الاعتبار لحشريَّتها.

سينام وهو يفكر طويلا في رحلته، وما سيحدده الزمن القادم ؛وحينما بدت الاحتمالات تترآى له حول تفكيره مُخمِّنا في صاحب هذا القبر، وفي تلك الأيدي التي زرعت تلك السدرة...

قوة أخرى، خفية، بداخله تقطع هذا الشريط لتعيده إلى المشهد الآخر، فيفكر - كما لو كان ساخنا ودخل، مغمضا لعينيه، زاما لشفتيه، في حوض ماء بارد - يفكر في الفشل وعودته خائبا إلى دوار أولاد سليمان. ثم يفكر ويرتخي في ظلام رخي وسكون مُريب:

آه... لو ينفتحُ باب الفرج الرباني ويُنزل عليَّ كرامة من كراماته الموزعة بسخاء على أهالي الشاوية، دون الباقي من الجهات الأخرى.

أعود إلى الدوار والنور - نور الحق - يشعُّ من وجهي إشعاعا.. روحي قريبة من أرواح الآخرين.

بئسَ ما أجد! أجدُ أغنامي ونُوالتي قد شغلهما راع آخر، فالتفتُ يمينا وشمالا، وأهل الدوار الذين لم يكترثوا لوجودي وقد انشغلوا في الدِّراس... اثنان وسط كل درسة، أما الآخرون فما بين جالس يسقيهم الماء أو من يتحدثون جماعات.

يحزُّ في نفسي إهمالهم هذا ،فأحس بضيم محسوس قد سكنَ قلبي، ترقرقتْ بعده عيناي، آنذاك أرعدتِ السماء وانهمرت الدموع والأمطار الطوفانية، على إثرها فرَّوا هرعين، مُخلفين كل شيء فوق دِراسهم وبهائمهم يجرفُها الطوفان الذي ضربَ موعدا مع ذلك الفضاء. وقفوا من خلفِ خيامهم ينظرون إليَّ وقد بقيتُ وحدي في العراء، وبدهشٍ كبيرٍ يُبصرون كيف أن الأمطار تتجنبُني، كما لو أن سقفا لا مرئيا قد رُصَّ فوقي، وكيف أن مساحة كاملة من حولي بقيت طبيعية غير مبللة، وكلما تقدمتُ في المشي، تجنَّبني الطوفان خاشعا... آنذاك تبدأ التهليلات والزغاريد : مولاي علي مول الرعدة.. سيدي علي ولي الله.

يضحك بداخله وهو مغمضّ العينين، شارد في البحث عن حرارة تذيب ذلك الحاجز من المجهول.

قال له بَّاخويا في آخر سنة من حياته: «إن السّراح رُعاة بهائم الرحمان، هم حُرَّاس اللّه على بهيمته ولهم درجة من درجات الولاية.

قفزت الحكاية إلى ذهنه :

مولاي بُوعَزَّه كان راعي أبقار الدوار. وجرت العادة أن يذبح الأهالي من حين لآخر، بقرة يوزعونها فيما بينهم، كل واحد بحسب قُدرته... وهو مجرى يجري للتغلب على شظف العيش...

عاد مولاي بوعزه بقطيعه من المرعى في ذلك المساء. حيث وجدهم، للتو، قد انتهوا من توزيع لحم البقرة فوق جلدها. دون أن يتركوا له شيئا أو نصيبا.. فقال لأهل الدوار وهم مجتمعون: **أين نصيبي من الوزيعة ؟**

فردوا عليه: نسيناك آ السويرح، تنساك الموت!

تبدل صوته، ثم تقدم وسط دهشتهم فأكمل جمع اللحم المقطع إلى قطع متعددة فوق جلد البقرة ووضع الرأس في مكانه، وصاح في البقرة: « أيْ اتْكَعْدي» ،فنهضتْ في رمشة عين، وهي تنتفض وتهشُّ بذيلها بعدما لم يستطع أحد تحديد اللحظات التي خاطت الروح فيها الأطراف المقطعة، ولكنهم سيأخذون كل زمنهم من أجل الارتباط بكرامته.

لا، لست مولاي بوعزة، ولكني إذا ما عدتُ، من فاس، خائبا، فسأنخرط في حركات السيبة حتى أجمع ما أشتري به غنما، وأرضا فلاحية، ثم أتزوج المزمزية، امْريوَدْ عَيْنَيَّ.

النوم سلبه ما كان ينوي التفكير فيه. ولعله آثر أن ينقل تهيؤاته من الصحو إلى الأحلام للحسم فيها. ربما لأنه يوجد في الحلم ما لا يوجد في الصحو!

-6-

كان المساء يزحف على الليلة الأخيرة التي سينتقل فيها من حقول الشاوية إلى منطقة الغرب، ومنها إلى فاس.

زادُه يكاد ينفذ، وهو من تمور وزميته. لذلك قرَّرَ ألا ينام تلك الليلة، مُواصلا سيره إلا حين الخروج من الشاوية. جحيم الدنيا. كما أنطقه التعب، بعد أربعة أيام.

تظل الخواطر تلك، تلازمه بين عودة ظافرة، أو خيبة مُرَّة يُحولها له اللّه إلى كرامة أو إلى إلهام وردي يغزو به القبائل في عهود دامية لا تعرف لها الشاوية نهاية أو هُدنة.

الظلام سُلطان كبير يجعل الوجدان يهشُّ على الذكريات ويتفقدُها بلمسات مرتعشة ولكنها واثقة، لهذا فخطواته كانت بطيئة أمام تذكراته المنتعشة للمزمزية.... تذكر أنه لابد أن يتزوجها، وينجب منها كل الأبطال المذكورين في الكتب التي طالعها صبيًّا.

تتراجع ذاكرته فجأة. فيدفع بقدميه متوهما أنه سيزيح ذلك المقص الذي يقطع أحلامه... لا يلتقط إلاَّ الاصفرار الذي يعلو وجه يمامته المزمزية، والفقر الذي يُرضعُهُما من مرارته.. الموت والقهر.

بدورها، نظراتها فاضحة وأحلامها نضجت في شجرة بدون أنساب، بحب عميق نحو علي، آمالها كلها قد انتسجت في عشق هذا السارح الذي لم يتجاوز التاسعة عشر من عمره... وهو خَلاصُها ومُعينُها على مسؤولية ثقُلت بسبع عشرة شاة ووالد كسيح وأخ لا يعرف وجهة نومه بعد... أو لأنه الوحيد

الذي انتبه إلى أنوثتها المدفونة في ملابس رثة، وأوساخ صارت هي قشرتها الطبيعية.

وحده عليّ من سينَفُذُ إلى جمالها المدفون، ثم إنه كثيرا ما يُقنع نفسه بأنها أحسن منه حالا، فهي تعرف والديها وتقطن في نوالة وزريبة بنعاج وأخ صغير..أما هو فقد عاشَ مع أب مزعوم وشياه لأصحابها. النوالة بدورها لأهل الدوار، تركوها له لأنه فقط سارحهم، ولو علموا بحقيقة تلك الأبوة لما تخلوا له عن الحق ولو في نفسه، ولما خيروه في البقاء أو الرحيل.

أنا مثل هذه البهائم، تائه أحيا من أجل بطني فقط، ما أفعله يمكن لأي واحد من أبنائهم أن يفعله، لست ضروريا...

وهل هناك كائن ما ضروري في هذه الشاوية؟

لا أريدُ، آ المْزَمْزَيّا، أن أبقى حتى أموت مثل بَّاخويا، وأفكر في الرجوع إلى طريق أخرى.... في فاس سأموت أو أولد من جديد، انتظرتُ طويلا حتى أولد، وانتظرتُ أن أعود ذات مساء لأجد «امْزَابْ» قد قيَّدت نساء وعجزة المزامزة فأحررُهم وحدي... أقطعُ الرؤوس وأطاردُ من تبقى من أهل امزاب... لا شيء، وأنا لا أريد أن أتمم دور باخويا.

واصل سيره، هذه المرة، بسرعة وكأنه يريد أن يدوس بقدميه التلابيب السوداء للظلام بعنف... (والظلام هو الجزء الحركي في زمن الشاوية.. وذاكرة تتشظى إلى أبعاد كثيرة).

فجأةً كانت أقدامُ عليّ قد داست على توزٍّ في جسد الظلام. فسمع صراخا عنيفا يعنيه بقصدية:

- توقفْ!

صرخة أرعشته وقبل أن ينتبه، ارتمت عليه أشباح آدمية قيدته بقيود من ظلام بعدما أشبعته ضربا، وهو داهش من الطارئ الذي غافَلَهُ في غمرة

تذكراته.

حملته تلك الأشباح إلى فضائها. فأيقنتِ الدهشةُ أن أهل هذا الدوار يخطفون العابرين. ثم يذبحونهم لتوزيع لحومهم على الجُعاة منهم. مثلما كان ذلك في عهود ليست ببعيدة.

أحلامه. كلها انتهت في الدرج الأخير من الشاوية. وستعيشُ المزمزية في انتظار قادم ذهب ذات فجر إلى فاس. وتحول لحمه دون عِلمها إلى عشاء متأخر. في دوار مذكوري معزول. وبيعت عظامه للعطار الأعمى الذي يجمع حطب جحيمه من الشاوية وعبدة ودكالة.

آهٍ منْ حطبِ الشاوية الذي لا يَحرقُ سوى الأحرار!

هل يمكنُ لباخويا أن ينسى أنه في زمن اصفراره وذبوله.. قال لي «إنه خريفي يا عُليواتُ... وخريف الشاوية وأنا حطبها بل كلنا. لا تنس أن تحرقني! .

هواجس تَملَّكَتْني، وتلك نبوءة من هذيان ذلك السارح العظيم، وهم يرمونني في مطمورة فارغة إلا من حشرات سوداء، كانت مظلمة ودافئة إلى حدود أني لو كنتُ غيرتُ من تنفسي أو تعثرتُ فيه لفقدتُ ارتباطي بخيط الهواء التائه..

ولكني فقدته وسقطت.

حينما بدأتُ أستفيق، وجدتهم قد أخذوني إلى فضاء مفتوح على الهواء، ثم سمعتهم يتحدثون عني بأني واحد من الذين جاءوا لحرق تبن دوارهم، والتمهيد لسرقة مطاميرهم.

-وأين أفراد عصابته الذين كانوا معه؟

-هربوا، وتعثر لوحده في مقدمة جلبابه...

-انظر ماذا وجدنا عنده، الزمّيته والتمر والماء. كان ينوي أن يقدم الزميته المسمومة لكلابنا.

ثم التفتوا إليه ليخاطبوه.

-قلت إنكَ من المزامزة - أولاد سليمان - وفين غادي بالسلامة؟

-إلى فاس.

-وعلاش آمولاي القايد!! يقول أحدهم ساخرا، وهو لا يصدق شيئا مما يسمعه.

-ذاهب للقاء مولاي السلطان.

يضحكون ثم يحفرون في ذاكراتهم مُفتشين عن ثأر ما بين المذاكرة والمزامزة.

ثلاثة أيام أخرى، لا يقدمون له فيها غير قليل من الطعام واللبن. وبالصدفة يسمع الفقيه الهبطي بحمى تأكل من ذلك السجين شيئا فشيئا، فيتدخل ليشفع له ثم يحمله إلى خيمته القريبة من المسجد وقد عانى كثيرا حتى يقتلع منه - في ستة أيام - الحمى والهذيان.

- دعوه يرحل عنا فهو مجنون، ولا نريد أن نسجل ذنوبا إضافية.

يقول الشيخ الهبطي لقومه. فعانى مرة أخرى كثيرا حتى يقنع الدوار والشيخ والمقدم.

تشافى علي الشاوي، وحكى للهبطي عن سبب سفره إلى فاس، فصدقه ودعا له بالتوفيق، وفي نفسه حب وأسى على أيام العذاب التي قضاها في ضيافة ذلك الدوار.

- سامحنا يا علي. قال له ثم سلمه مزْوَدا من الزميته وقدّيدا من لحم البقر الجاف المملح، وماء وحليبا. ووداعا طريا.

خَطا خطوته الأخيرة في حقول الشاوية مُخلفا وراءه رماد اشتعالات كل الفصول، وهِراشَ الذئاب الذي غلبَ كلَّ أحد فلم يستطعْ شيخ أو مقدم أن يفتيه. خصوبة هذه الحقول لم تكن تُوازيها سوى خصوبة البغض والتناحرات بين بعض القبائل... وكلما كان الخصب طافحا، جاء رهيبا بين امزاب والمزامزة

وأولاد سعيد والمذاكرة وأولاد بوزيري، وكانت امزاب هي الأشرس التي لا تلينُ قناتها، حتى صار المزابي لا يستطيع أن يحيا دون صراع.. ولكنه يتحول إلى تضامن ضد الوافدين لسرقة هِبات الشاوية أو حَرْكات الذين يريدون تطويع أهلها.

وسيموت السلطان تلو السلطان وفي نفسه غصة قاتلة من الشاوية التي كان يمر منها، فتنهبُ أمواله وأزواجه منه .وحينما يهجم عليها، يرجع خائبا لأن جزءً من امزاب والمزامزة فقط، يكفي لصد جيش كامل العتاد.... لهذا كان عدد نسمات الشاوية ثابتا وهو ما سيحير المؤرخين، لأن العدد الذي سيولد في المطر والربيع، يوازيه عدد مماثل تقريبا سيموت في حروب الصيف الطاحنة. معادلة صعبة ولكنها عادلة، لأن الموت بالنسبة للشاوي، صغيرا أو كبيرا، هو شيء كالمطر أو الجفاف.. له معنى متحول.

الشيخ القفيه الهبطي الذي تحول من عَطار إلى قاطع طريق إلى قديس فقيه... سينهضُ في فجر أحد أيام الجمعة للآذان، فرمى بصوته خارج جبة النص المقدس الأصلي وصاح بلغة أفاقت الدوار من المصلين وغير المصلين:

- «يا أهل الدوار.. إني أعلن لكم خبر حلم رأيته قبل قليل: امزاب ستُتوَّجُ عاصمة الشاوية؛ وإليها سنؤدي الخرص والعشر والزكوات المقيدة وغير المقيدة، فالويل والدبور وعظائم الأمور، وعجائب الشرور وغرائب كل الدهور لمن لا يُصلي وجهة امزاب... امزاب أهل السيف والكتاب».

أسكتوه فلم يعد يؤذن أو يؤم الناس للصلاة خوفا من تماديه في نشر أحلامه التي ستُفيق أحلام الآخرين.

-7-

كان الخريف يتلوى في أيامه الأخيرة، فاسحا الطريق لفصل شتاء يستبقُ

نفسه بعواصفَ ملآى بكل شيء.

تخرجُ نساء الشاوية إلى الغابة لجمع الحطب والسعي خلف البهائم لالتقاط روثِها وتجفيفه بقصد الاستدفاء به خلال موسم الأمطار الذي لا أحد يمكنه التخمين بِلَوعاته.

في تلك اللحظات، كان بَّاخويا يتلوى، في صمت، داخل غمام صُفرته الرهيبة، مُمَدِّدا جسده في النوالة، وعليٌّ أمامه قابع يحاول امتصاص ذلك الأنين الصباحي لخريفين يودعان عالم الشاوية.. وإن كان الواحد منهما سيعود بعد حَوْلٍ، أما الثاني فلن يعودَ أبدا.

طلبَ منه أن يحرقه وينشر رماده على أولياء الشاوية.. «وما تبقى من رمادي، ابعثه لدكالة».

«من؟». يتساءل في حُرقة بدَّدت ظلام الموت الذي اختطفَ والده المزعوم فتركه للحيرة التي تخطف عقله بأنياب مسمومة، ولكنَّ جملة واحدة من فم بَّاخويا، هامشية، ستُحدد للحيرة وجهتها فيما بعد.

في الأيام التي وجدهُ باخويا فيها وليدا في الغابة مثل أية حكاية مجهولة الكاتب والنهاية ، كان «السَّطاشي»، زعيمُ أكبر العصابات بالعراصي، يُطارد عائلة مكونة من أم وأب وخمسة أفراد كلهم ذكور، لأنهم امتنعوا في ذلك الصيف، عن أداء السطاشية، كما كانوا يسمونها، وهي جِزية تصل إلى أربعة قنطارات عن الهكتار الواحد، وستة خرفان عن الخمسين نعجة.

رفضَ علال ذلك وصرخ في وجه مُوفد السطاشي. قال له: «أنتَ لصٌّ تسرقُ الناس بترهيبهم، وهو أمر كان في الجاهلية». أسرع الموفد فأخبر رئيسه بكل ذلك الكلام وأضاف من عنده بعض الشيء... ومباشرة قرر أن يجعله عِبرة للآخرين فأحرق في الليلة الأولى تبنه. وقتل في الليلة الثانية بهائمه،

وأعلموه أن تكون الليلة الثالثة إعداما له ولأبنائه الخمسة، فلم يبال لأن قراره هو أن يموت ولن يفر أبدا. لكن الجملة كما قالها الموفدون، وهم ستة وثلاثون فردا. أكدت له جملة أخرى تقول بأنهم سيقتلونهم ببشاعة.

- «إذن، الفرار ولن نقدم أرواحنا لهم مجانا». هكذا اتفق مع زوجه وأبنائه، فحملوا ما خفَّ، كما حملت تلك المرأة. التي بقيت داهشة بدون دموع، وليدها الذي تجاوز العام بأربعة أشهر على ظهرها وتستروا تحت جنح الليل دون أن يخبروا أحدا من أقاربهم بالدوار.

لم يتوارَ غبشُ الفجر بعدُ. وقد قطعوا شوطا كبيرا في الغابة. فجأة سمعوا وقع سنابك الخيول وأصواتا صاخبة أبانت بما لا يترك للشك فرصة، أنهم قادمون في اقتفاء أثر الفارين، فبدوا كالأشباح التي تركب الفضيحة، فيما توقفَ الأب والأبناء الخمسة ملتفتين إلى الموت القادم بكل عتاده المرافق:

الزَّمَنُ: آخرُ جُرْعَةٍ مُرَّةٍ مِنْ كَأسِ ذَلكَ الفَجْر؛
الفَضَاءُ: غَابَةٌ للذئَابِ وأغنام باخويا؛
القَادِمُونَ: أشباحٌ من ستة وثلاثين طيفا ضبابيا؛
المُنْتَظِرُونَ: أبٌ وخمسةُ أبناءٍ مَعَ أمّهم.

حسمتِ الأم انتظارها، فابتعدت حيثُ وضعتْ وليدها خلفَ شجرةٍ بعدما غطته بأوراق الأشجار. ثم عادتْ منتصبةً مع الآخرين تنتظرُ مصيرَ المشهد.

سيُحاول علي الشاوي استنتاج أن أمه لما وضعتْهُ غضَّ بصره لأن أوراق الشجر كان باردا... وبعد ساعتين، ابتدأ صراخه حقيقيا، فجاء باخويا والتقطه ثم نَسَبَهُ إلى نفسه.

هكذا يمكن...
سيسأل عليٌّ المزمزية عمَّا قاله لها الكسيح، ردّت عليه بأنَّ والدها يذكر

السي علال لما فرَّ مع زوجته وأبنائه الخمسة... وجدوهم مقتولين بشكل متفرق وسط الغابة. باستثناء طفل صغير اسمه عبد الله، لم يعثروا عليه، ولا يعرفون مصيره بالتحديد.. أقُتلَ أم التَهَمَهُ الذئب؟

هل أكونُ أنا ابن أولئك اليتامى الشهداء؟ أم هي صدفٌ تتآمرُ على هواجسي حتى يكتملَ الوهم؟
لنْ يُصدّقَ أحدٌ الحكايةَ أبدا لأن الشاهد الوحيد هو استنتاجاتي، والأهمُّ أن أترك الزعم المألوف حيًّا لهم، فأحيى بِزَعْمي، وأنسى أني بقية شهيد ضائع بين أشجار الصنوبر.

المزمزية تعرفُ الحكاية بجزءيها، ولا تُصدق شيئا آخر إلا ما تراه أمامها ولا يهم غير ذلك، وبدوري لا يهمُّني أن أنتقم وأنا عاجز بدون عتاد غير عصاي، وأن السطاشي الآن عجوز في عرينه،-وَرَّثَ زعامته لبنيه مثلما وَرَّثَ الآخرين، الستة والثلاثون نفرا، وضعياتهم لأبنائهم وأقاربهم، بعدما ماتَ من ماتَ.. وشاخَ من تبقى دون أن تطفو توبة واحد منهم، ويكشف للمزامزة أسرار السطاشي، ومواطن ضعفه.

عليٌّ ينتفضُ، وخطواتُه تعقد مع وِجْدَانِه ميثاقا نحو فاس، وفي ذلك الخلاء المنبسط الذي يفرش نفس حصائره للضحك والظهيرة والعصر، يبدأ بصوت هستيري صارخ (وهو يسرع في مشيته) مستظهرا مخزونَ محفوظِه بارتباك سريع، يخلط فيه كل ما يأتي على لسانه:

..وكانوا سادةً بالعَرَاصِي، مَا مَرَّ ابن بطوطة أو ابن الخطيب أو حمزة البهلوان أو سيدي سيف... مَا مَرُّوا ولكنهم تألموا وأخبروا أنهم أبصروا في سكان العراصي مخلوقا عظيما وهائلا، محمولا في الهواء، رأسه رأس ثعبان وذنبه ذنب سمكة، وفي ظهره شيء كالصومعة. وكان الزمن زمن الشاوية، في ضحى يوم الأربعاء منسلخ صفر الخير عام اسودَّ جُرم

الشمس.. والله على كل شيء قدير، ومن كذَبَ عليَّ مُتَعَمِّدا فليتبوأ مقعده في هذا الجحيم».

يقفُ. يبللُ ريقه دون جدوى. تحسسَ قُنَّةَ رأسه فالتهبتْ أنامله وشعرَ بألم حاد قد أخذ الكلمة في رأسه وعينيه وحلقه وكافة مفاصله.

تحاملَ مُتقدما حتى وجدَ بضع شجرات. سقط مُتهاويًا بجسده على مساحة الظل، فلم يستفق منذ ذلك العصر إلا في عصر اليوم الموالي وقد شعر ببعض التحسن.

قامَ جائعا، فالتهمَ كل ما لديه،شاربا ماءه، طاليا بعضَ القطران أسفلَ أنفه وفي قُنَّة رأسه. ثم انتظر حتى خفتِ الحرارة ليواصل سيره بحثا عن دوار يقتني منه زاد زمنه المتبقي نحو فاس.

حُمى، زكام ثم شقيقة قاسية رغم بُخور العطار وطلاء القطران... ولكنه يستطيع أن يتحمل كل ذلك، ولن يتحمل أن يحيا في ذلك المنفى أسيرا.

-8-

أرضُ الشاوية وحدها في مجموع البلاد. تغلي بالأحداث وتقض مضجع البعيد، لأنه لا يعرف الحدود بين الحياة والموت. كانت السيبة فصلا شديد الوضوح والالتباس في آن، وكأن أهل الشاوية توَّاقون إلى التحرر من كل سلطة وتنظيم، أو أنهم يجدون في السيبة الفرصة لتكسير ظلم الظالمين ورفض كل الضرائب الدينية والدنيوية المُجحفة لبيت المال بمراكش أو فاس. وصدّ كل محاولات القادمين لسرقة أراضيهم بما عليها لخصوبتها واستوائها وجودة بهائمها.

هكذا عاشت هذه الرقعة من الأرض لحظات بين مد السيبة وجزر الطبيعة

وتقلباتها.

أحلام كثيرة مثل الملاحم الثرية، كانت متناقضة على مرأى من عيون مخزن همّه - كما سيقول الشيخ الهبطي في إحدى لحظات إشراقه القرنفلي - أن يخزن أهل الشاوية في مطامير لن يفتحها أبدا، ويملأ خزائنه من خيراتها العميمة.

كانت هذه الأحلام تحترق قبل الحصاد مباشرة، لأنه لا يمكن للمخزن أن يكسب عطف دوار واحد، فكل نفر يحارب لحسابه، حتى الثعالب تنتعش وسط هذه الحروب الطاحنة. وتقود، حملاتها الليلية لحسابها الحيواني الخاص... فلا مجال أن يفكر، المخزن دائما في المطامير. لأن القبائل تعتبرها جيوبا للكرامة والتحرر. وله أن يوجه دفة أحلامه المنحسرة بنفي المغضوب عليهم إلى الشاوية وتلك مفارقة لا غرة فيها، لأنه في أزمان الشاوية الأولى كانت السلاطين تُوَطِّن كل من ساندها في الحروب، من أهل الجنوب أو الشمال، وكأنما تجازيهم بهذه الأراضي السهلية الخصبة في وسط البلاد... أما اليوم فإن الشاوية أصبحت منفى لعذابات السيبة والطقوس.

وكان لابد أن يكتمل نسج العباءة فيكتشف، ذلك السيد، أنها شيء آخر يشبه الارتباك، وحالات الشاوية بحكاياتها وأبطالها قد أفرزت فئتين: الأولى من القطاطعيَّة، وهي عصابات منتشرة ومنظمة. حاولت ربط الاتصال مع المخزن وكانت سببا في إهراق عقود وقرون كاملة مجانا.

أما الفئة الثانية، فهُم أولئك الذين يحاربون الفئة الأولى دون هوادة وبكل الوسائل، حرب توقيتها المعارك وفضاؤها الموت تلو الموت. وطبعا كانت الفئتين بداية مثلما كان لخطوات علي الشاوي نبضها الشبيه برنّات حبات الرمان وهي تسقط من يد طفل دهش من لون الرمانة الأولى.

قَدِمتْ إلى الشاوية صغيرة السن. خُلاسية كأنها فاسية أو أندلسية لم تفقد ممتلكات روحها هناك، وتبدو في أحيان أخرى - من خلال نظراتها

الشبقية - أنها مراكشية مشبعة بالعطش إلى فقه غريب.

ريمة: تلك الخلاسية التي أدهشت الجميع برقصها المُنفلت من رسن المألوف. انقادت بين أحضان غجر الشاوية الذين كانوا ينهبون الدوار صيفا وشتاء ويسكنون الغابة والعراصي. انتشر جسدها وخبرها بين اللصوص حيث كانت بجمالها واحترافها للغواية تختار الأصلب منهم ثم تأمره أن يأتيها بقطيع من الصردي، وأربعة رؤوس آدمية تضعها «مناصب» لكوانين الليل.

أصبح أهل الشاوية كلما أرادوا الحديث عن اللصوص قالوا «أولاد ريمة» أو اختصروا الكلام وقالوا «ريمة» لأنهم يعرفون «بالتأكيد» بأنها هي التي باتت تصدر الأوامر وتحدد مواقع النهب والفتك.

في فترات محددة من السنة، وبالضبط في فصل الخريف، كانت ريمة تلبس جلبابا صوفيا، وتختلي بنفسها من أجل التعبد، لكنها سرعان ما كانت تَعُودُ - بانتهاء الأيام المحسوبة للخريف - إلى عادتها القديمة، ويتكرر المشهد وتتكرر قولة أهل الشاوية «عادت ريمة إلى عادتها القديمة».

توبة كاذبة يا ريمة أيتها الخلاسية التي كتبَ الفقهاء اسمها بحبر صفدوه من عروقهم وأضافوا إليه قطرات من الحامض، ونسجت المزابيات والمزمزيات قفاطين صغيرة من جلود الثعابين أسمتها «قفاطين ريمة!».

حينما أصبحت السيبة أكثر حِدَّة من المناجل. فكرت جماعة من المنبوذين العزارا الذين فيهم من لا أب له! أو من الفارين من جرائم ارتكبوها بدواويرهم... فكروا في نهب الشاوية بطرق مشروعة في نظرهم، بحيث إن كل من يريد أن يعبر سهول الشاوية، من أية جهة كانت، في قافلة الأمان، دون أن يتعرض للنهب والقتل، لابد له من الاحتماء بأولئك العزارا الذين أطلقوا على أنفسهم لقب الزطاطة.

كانوا يشغلون وظيفة الترطيط بمقابل يتغير من فصل لآخر. ومع قيمة الشخص وما يحمله، حتى أنهم كثيرا ما أخذوا ابنا أو بنتا رهينة عندهم مقابل ترطيط العائلة التي لا تملك المكوس المطلوبة.
أما الوظيفة الثانية، فهي أن الزّطاطة كانوا يقطعون الطريق على كل شخص أو جماعة اختارت المرور من الشاوية دون حماية.

أهل الشاوية، في البداية، استهانوا بالمسألة، لأن الزّطاطة كانوا يفرضونها على غير قاطني الشاوية، ولكنها أصبحت فيما بعد فرض عين على الجميع، آنذاك، صار صعبا محاربتهم لأنهم تنظموا، وانضم إليهم العديد من المعتوهين والمجرمين والمغامرين الذين ارتموا في جِراب الزطاطة لما سمعوه من نعيم يحيون فيه.

الآن، هم يتحكمون في كل الخيوط الظاهرة والخفية .وهو ما سمح لأهل الشاوية أن يستبدلوا لفظ الزطاطة بلفظ أقرب إلى الحقيقة وهو القطاطعية أولاد ريمة، الذين قطعوا كل الطرق بين امزاب وأولاد سعيد وأولاد بوزيري والمذاكرة وأولاد حريز. كما قطعوا الرؤوس وعلقوها على أشجار الغابات وبالمداشر، وطاردوا ونهبوا وأحرقوا وبقروا.

كانوا في بداية أمرهم، أقل مما هم عليه الآن، ثم تكاثروا في مخابئ سكناهم، الغابة والعراصي، دون أن يستطيع أحد التخمين في من فكر منهم في نزول أسياد القطاطعية إلى الفيلاج؟ والذي سيسمي «زطاط» قبل أن يتحول إلى سطات، هناك أقاموا سكناهم وتحكموا في كل شيء.

رسموا بالألوان شجرة أنسابهم الفارغة، فباتوا أسيادا. لهم التعقر والبهائم والأراضي والنساء والعبيد.... ولا ينادى عليهم إلا بالحاج ومولاي وسيدي... إنهم قطاطعية شرعيين في زمن الشاوية.

والشاوية ترزخ بمنافيها تحت سلطة عرفت كيف تطور نفسها من دون أن تفقد شيئا، والأهالي غارقون في تلك المسافة الضيقة بين محاريث من خشب، ومناجل حديدية بلون التراب.

وفي كل مرة تعود ريمة إلى عادتها القديمة، وأولادها يقتطعون النار إلى حصص متساوية على نشيد رقصات، بقدر ما هي شبقية، كانت تُلهب الشاوية التي تحولت إلى جحيم يقيد الجميع بقيد واحد.

من امزاب والمزامزة كما من قبائل أخرى متفرقة، قامت حركات لمُفاجأة القطاطعية، في حروب كل مرة تكون فيها إبادة طرف ما وهما مُضحكا، وفي إحدى اللحظات الصيفية خرجت حَرْكة مشتركة بين المزامزة وامزاب بعدما نمى أن حوالي سبعين نفرا من القطاطعية يوجدون على مشارف أولاد حريز وهم قادمون لا محالة إلى المزامزة.

سرَّجوا الخيول، فالتقوا - أمام دهشة ذلك الفجر - على ربوة العُرَّامية، واستمر القتال إلى الضحى والإبادة، بعدها جلس فرسان امزاب والمزامزة يزهون بانتصارهم. وفجأة، أي سلطان رجيم قال إن عدد قتلى المزامزة أقل بكثير من قتلى المزابيين، من ألهب الحماس، والربوة شاهدة على المشهد، وعلى التطاحن الذي كان أشرس بكثير من معركة الفجر، واستمر حتى المساء والفناء؟ ومنذ تلك اللحظة سُمي المكان بربوة العرامية. ويعتقدون أن كمشة من ترابها إذا ما ذُرَّت على الدوار الواحد تقاتل أبناؤه حتى الفناء.

هل تنهض ريمة من محراب خريفها فتحمل ربوة العرامية كاملة بيديها، ثم تذْروها على الشاوية بدون استثناء ذرة ذرة؟

لم ينقطع أبدا دابر القطاطعية الذين كانوا يخسرون المعارك أحيانا، ولكنهم يربحون حروب المواسم.ووسط هذا الجحيم المنفي، انقسم أهل الشاوية إلى فئات أمام أولئك : الأولى اختارت الدخول في معارك لا تنتهي، تتحارب بالعصي والمناجل ومقابض المحاريث وبالخناجر والسهام والعظام والحجارة

والمقالع والمنادف والسيوف؛ أما الثانية فإنها أمام اليأس، ولدفع ذلك الصمت في رقعة المنفى تشكلت ضمن جماعات من الشيخات يملأن الجحيم الموحش بأصواتهن المقهورة، ردة فعل لنشر حياة خاصة بديلا عن الحياة الطبيعية المفتقدَة وحتى ينسى زمن الشاوية ترنحاته الكظيمة؛ فيما اختارت الفئة الثالثة أن تنسج من الدهشة فواكهها فكان منها من ارتكن إلى الصمت والاستماع إلى ما تأتي به العواصف، والبعض الآخر امتهن حرفة عطار من أجل تدوين الأخبار في ذاكرته، ونشرها وسط الدواوير النائية.

زمن الشاوية مثل حطبها، القطاطعية فيه يتصيَّدون في الماء العكر، كما في الصهد والحرنة، ومقاومون ليست لهم غير الجسارة والمناجل والمحاريث... كل هذا جعل هذه الرقعة تندفع باستمرار بين رغبتين متناقضتين: واحدة في الحياة وأخرى في الموت، كما كان السلطان، أزليا، يُوَرِّثُ لمخزنه حب الشاوية في خيراتها وجودة أحصنتها وخرفانها وزرعها، وكره أهلها المطلق فمحاربوها لا يستريحون أبدا... (أهم أزليون إلى الأبد، قريبون من الموت أكثر من قربهم من الحياة؟).

وسيقول السلطان لأحد الفقهاء المقربين إلى خاطره النزيه: لو رضي أولئك المتحاربون خوض الحرب معنا لمدة سنة لملكنا الأندلس من جديد وكل الدول العجمية المجاورة لها.

لو: هما الحرفان الأشدّ خفة في التمني، ولكن زمن السهول الذي لا يذكره أحد، يستدرك ليصحح من سير السواني، كل الحروب التي كانت دفاعا عن الوطن ضد البرتغال أو غيره... كان أفراد كثيرون من قبائل الشاوية يتطوعون بأرواحهم، وفي الصفوف الأمامية دون استدعاء أو رغبة في أجر ما... بل إن الحروب خارج زمن السيبة هي أهون بكثير مما تشهده الشاوية.

-9-

رمى علي الشاوي خطواته وقد خفَّت عنه الحمى، كما نسيَ بالتدريج ما وقع له لولا الشيخ الفقيه الهبطي، ولن ينسى أبدا لحظة تركه بَّاخويا وحيدا، فاختار مواصلة الرعي مكانه، بعدما بعثوا معه أحد أبنائهم لمدة شهرين حتى استأنس، وأنذروه أن يطلق صفيره كلما جدَّ طارئ، كما كانت وصاياهم تتعدد كلما سمعوا خبرا بضياع قطيع نام راعيه أو طارد الحجال الوهمية، ودربوه كيف يحارب الذئب وبنات آوى، وكيف يطعن الغولة التي ترمي بثدييها المرتخيتين على كتفيها.

وصايا طويلة أعادها عليّ على المزمزية التي لم يكن لديها أي إحساس بما يمكن أن يسمى حُبا، ولكنه تعاطفٌ ووود، كالذي يجمع بين خروفين.

في البداية كانت تجمع حجرا صغيرا دائريا، فتلعب به ثم تدعوه للعب معها لحظة استرخاء القطيع، فيتعمَّدُ تلمُّس يديها الصغيرتين والصلبتين، فلا تشعر بأي شيء إلا بعد سنتين، حيث بدأت تحس بدفء يهجم على تلك الصلابة، فيلينها دون أن يجرؤ على تقليد ذلك الصردي الذي تأثر بفحولته نعاج الدوار كلها.

دوار أولاد سليمان وشم بارز في ذراع المزامزة التي هي جزء مشتعل من جحيم الشاوية المنبسط في نوم مشبع بالأرق.

ينهض علي الشاوي فجرا، متفقدا قطيعه داخل الزريبة المُسيَّجة بأشواك السدرة، ثم يتجه نحو البئر. فيغتسل ليُشعل نار كانونه.. يستدفئ قليلا، ثم يرضع حليبه اليومي من الشاة الموعودة. خبز يومه تأتي به له إحدى الخيام قبل أن يدفع بشياه أزمانه، كما يدفع بأحلامه نحو الغابة التي سيلتقي فيها بالمزمزية، صباحا، وساعة قيلولة القطيع بعد رجوعه من البئر.

- صباح الخير آ المْزمزية.

يقول لها وقد أطلق رسن وجدانه الخصيب أمامها وهي شاحبة بلون

القرنفل صباحا، ولون الورد مساء، ترعى مع أخيها أحمد الصغير نعاجهم القليلة.

- صباح الخير آ سيدي علي.
تمضغ بجوابها هذا، جسور الحديث وأحمد يلاعب كلبهم الأحمر.
- كيف حال بويا رحال؟
- لهلا ايوَرِّيكْ مرض الركابي..
- وأنتِ كيف عاملا مع هنا وهناك؟

قناطر من الحب تنبني بلغة شفافة غير مغسولة من رطانتها المبشرة وفِطريتها، والوجدان ينساق إلى حتميته طوال النهار منذ الفجر إلى غروب الشمس، وكان هذا الحب الذي ينسج الشاوي والمزمزية حكيه الأبيض صورة لهذه الدورة بين الشروق والغروب، ولأن عودة المزمزية إلى دوار أولاد المسطاوي سيُعيدها إلى تلك الهموم السادرة، فهي التي ستطبخ لوالدها وستكنس الخيمة والزريبة، ثم تنام بسرعة، وذاك غبن كاسح في حق أحلامها التي لا تعرف لونها.

في الصباح، يكون الدوار كله قد استفاق بأخباره التي وصلت في بحر الليل عن الحرْكات، والقطاطعية، والسادة الأولياء الذين كانوا حتى غروب شمس البارحة أناسا عاديين يهاجمون القوافل والقطعان، ومع الفجر تحولوا أولياء من خلفهم خوارق مزعومة، ومن بعدهم أقوام غريبة. الحركات تلك، والادعاءات المتوالدة التي تنبت كل صباح في سهول موعودة، ليست غير أحلام تتجلى في تلك الصيغ، ومن حق كل شاوي أن يحلم في زمن الشاوية بما يشاء. وبالطريقة التي يرتضيها أوْ ترتضيه، مادام سيجد من المزعومين أتباعا لن يكلفوه غير الجلوس والتأمل.

سيشعر عليّ بنفس شعور المزمزية حينما يعود بأغنامه كل عشية. كما سيسمع - بعد إدخالها إلى الزريبة - عن موت أطفال جدد. بعضهم يقولون أن للجن دخلا كبيرا فيها، ويسمع عن رحيل خيمة أولاد بن جعير كرها بعضهم

أجبرهم المقدم ولد الكبير على أن يأخذ منهم أرضهم غصبا، ويعاشر ابنتهم فسادا، والتي خطفها منهم بتبرير أنها استجارت به من بطش والدها، وهو افتراء فَقِهَ له الجميع.

سيدي امبارك بوكرن ذو الضفيرة السائبة، مثل عُرف ديك ذبيح، شاع أنه معتوه في أولاد سليمان، يفعل ما يشاء، ويقول ما يريد، ولكنه هذه المرة... اتجه نحو «علي» وباح له بأن المقدم ولد الكبير يقود عصابة في الشاوية ينهب بها ويقطع الطريق على القوافل القادمة أو المتجهة بين مراكش وآنفا.

تصفعه الدهشة لأنه لم يحتمل أبدا الشك في سيدي مبارك بوكرن، رغم أن المقدم كان قد أبعده مرارا عن القبيلة لأنه الوحيد الذي يحمل له كراهية معلنة تضايقه كثيرا.

قال له أيضا إن المقدم ابن سِفَاحٍ من السَّطاشي، وقد نصب نفسه على القبيلة دون استشارة أحد.

كان هذا الكلام بداية ليربط عليٌّ بين ما سمعه والغنى الذي يتمتع به المقدم، وبين جبروته وأحلامه الممددة، ولن يفهم مغزى كلام سيدي امبارك إلا حينما تكررت الحرْكات عليهم، إذ كلما كان الموسم خصيبا هاجمتهم عصابة تسلبهم كل ما لديهم ولا تترك لهم غير الشيء القليل، ثم تسبي منهم فتاة أو اثنتين دون أن يتم الاقتراب من خيام أو زرائب الأعيان لأنهم من أصدقاء المقدم.

ليس غيره، فهو الوحيد الذي يعرف مطامير الدواوير ومواقع الزرائب وكل شيء بدون خطأ، والناس في الدوار وفي الدواوير المجاورة تعرف تفاصيل الدسيسة، ولكنها تنتظر لحظة قدرية تأتي مع العواصف.

خلال ذلك الصيف كانت الخصوبة تنذر بشؤم عظيم، وقد اشتغل علي

مع الحصادين في الحصاد. يلبس الصّباعات القصبية ويضع التباندا على نصفه الأسفل. وقطيعه سارح في ما ثم حصدها من حقول. كما دخل إلى الدراس. فكانت الشاوية درسة كبيرة ملأت المطامير كلها. وحفروا الضعف. لكن الزرع بقي سائبا. ووحده المقدم ولد الكبير كان سعيدا بكل هذا. لأنه يعرف أنهم يحصدون ويدرسون ويأتي لينهب كما يشاء.

حرارة جحيمية لا تريد أن ترحم. لكن من فكّر في المسألة قبل حدوثها؟ هل هو سيدي امبارك أم أنها نزلت مع المطر وترعرعت في التصور ثم جاء حصادها ودرسها وهاهم اليوم يبحثون عن كيفية اقتسامها ؟.

عاد متأخرا في ليلة الخميس تلك. ووسط أهل الدوار الذين اجتمعوا للسمر قرب المطامير. قال لهم سيدي امبارك: إن المقدم ولد الكبير راجع من عند القطاطعية بعدما اتفق معهم على ساعة الهجوم. لحظتها اتجهوا. في حملة إلى بيت المقدم فلم يجدوه وانتظروه حتى جاء وقرّروه. ثم صاح براح في ذلك الظلام... من كان له حق عند المقدم فليأت ليأخذه لحما أو دما.

يموت المقدم ولد الكبير مقتولا ببشاعة. وفي الليلة الموالية. قبل الفجر بساعتين كانت حربا حقيقية قد تهيأ لها شباب أولاد سليمان وهم حوالي المائة والثلاثون ضد سبعين من القطاطعية. فدامت المعركة ضروسا حتى اقترب العصر. وفرت أفراد قليلة من اللصوص بجراحهم في نهاية المعركة والتي أدارها بوكرن وشارك فيها علي الشاوي بمنجله الصدئ.

بعد ذلك سيختفي سيدي امبارك. وتختفي معه حقيقة معلوماته التي كان يأتي بها من أخيه المجند ضمن أولئك القطاطعية. والذي تم بوكرن بخبر الهجوم وخيانة المقدم. ورغم ذلك فقد شارك ولقي مصرعه. ولأن لا أحد سيفهم هذه الأسرار فإنهم لن يستوعبوا شيئا حينما ضب بوكرن تتكفل بدفن القتلى من الطرفين.

انتهى المشهد، لتبدأ المشاهد الأخرى.. تأتي تباعا بكل نسيجها المتنكر مادامت الشاوية، في زمنها هذا بالضبط، لا تستطيع أن تحيى بدون حرْكات.

***

امتلأت المطافي والصهارِيج، ومعها المطامير والسهول والقلوب، نتيجة الأمطار الغزيرة التي أبت التوقف حتى فاضت الأودية، وجف الأمل في النجاة، وكان عليٌّ في تلك الأيام الطوفانية قد انقطعت به السبل في الغابة ولم يستطع الرجوع إلى الدوار خوفا من ضياع القطيع، فابتنى لنفسه سرادقا صغيرا أسفل الأشجار.. يروي لأغنامه كيف أن اللّه، كل عقد، يقول للملائكة، أنظري إلى عبادي في الشاوية كيف جرفت عظامهم وترابهم، وربما روى لها أيضا، استباقا، كيف سيمطره اللّه بحلم جميل يروي ما تبقى من زمنه.

كان السلطان مارا من مراكش إلى فاس قادما عبر الرحامنة وبني مسكين وصولا إلى الشاوية التي لم يلتفت فيها إليه أحد، فجهة أنهكتها المعارك، وجهة هدمتها العواصف والأمطار.

وصل السلطان إلى الغابة وقت ظهيرة غرقت في التهاطل العنيف للأمطار، ساعتها، رآه عليّ وقد فهم بالحس أنه السلطان المحاط بمحلته فأسرع يقبل أقدامه المحمولة على فرسه فيسقط في الأوحال ثم ينهض مكررا المشهد، داعيا السلطان القدوم إلى سرادقه إلى حين انقطاع الأمطار، فنزل من أعلى فرسه ودخل ريثما ينتهي الجنود من بناء المحلة السلطانية، آنذاك قبض علي على أجود فحول خرفانه، فتقدم به ليذبحه على مرآى من السلطان وكانت الكوانين قد اشتعلت.

- هذي ذبيحة لسيدي ومولاي السلطان.

سَعِدَ كثيرا بهذا الكرم العارض في هامش الشاوية من سارح يرعى غنما

لا يملكها، ويقدم له فحلها، ويأمر الجنود كي يذبحوا لأنفسهم ما شاؤوا. وكان سعيدا أكثر لعفوية الحب في فضاء جاف من حب المخزن. فأكل واستراح حتى أظلم الليل وتوقفت الأمطار، فركب السلطان فرسه من أجل مواصلة سيره وكانت جملته الوحيدة لعلي والتي سيحفظها:

- اللّه يرضي عليك آولدي، إذا احتجتَ لشي حاجة جي عندي لفاس.

كان حُلما أمطر مع الأمطار مثل بذرة سمادها طموحه، وستحيى بأعماقه دون أن يخبر بها أحدا.

***

تتمدد ألسنة ريح الشركي لتلحس كل الرطوبة في منتصف شهر يوليوز... بعد الحرب التي انتهت لتولد من تحت رمادها حروب أخرى وقطاطعية جُدد تناثروا في كل سهول الشاوية، وقد أعادوا تنظيم أنفسهم بعد الدرس الذي لقنته لهم أولاد سليمان.

عليّ.. سيتذكر الحروب الصغيرة مع العراعير، وكلام باخويا وبوكرن؛ وفجأة تترآى أمامه آخر سنبلة تُثمرفي نفسه، فيهُمُّ بحصادها، ويقرر زيارة السلطان بفاس ليطلب منه قطيعا من الغنم وبغلا وسرادقا، وأرضا حتى يتزوج من المزمزية.

هكذا فكر في الرحيل إلى فاس، لا يحمل معه غير أحلامه التي يهش عليها بتلك السنبلة الثامرة.

-10-

يصل فاس، أخيرا، وقد استوت قدماه ونضجتا بعد أربعة وعشرين يوما. بدت له معرشة بالأحلام التي سيقطف منها دون حساب.

كانت الساعة مساء، الخامسة، قرب جامع كبير، حوله تكثر حركة الناس، فلم يعط عليٌّ لنفسه فرصة إلى الغد، ولكنه، مباشرة، انطلق يسأل كل من يجده أمامه: حلاق، حمّال السلال، دراز، بائع بعض الأواني الطينية، باعة الجلابيب والبلاغي والفرجيات... أو تلك العجوز المنحنية على أزمانها تبيع مسحوق الكحل وأعواد السواك... سأل: «أين يمكن أن أجد السلطان؟».. ثم سأل وسأل، فلم يجد غير الصمت والاندهاش... ولم يمر وقت طويل حتى التفَّ حوله خمسة من العبيد الطوال العِراض، برؤوس حليقة، شدّوا وثاقه ثم اقتادوه دون شفقة، إلى مكان قريب من أول فضاء يدخله بفاس. دهليز مظلم ليست به غير نافذة مربعة في حجم شبرين، مُشبكة بثمانية قضبان عمودية، وأخرى مماثلة عددا، أفقيا، هذه النافذة العالية بحوالي ثلاثة أمتار ونصف، تجعل الداخل إلى تلك الغرفة الأرضية ذات السقف العالي، المصنوع من أعمدة الصنوبر، يشعر برائحة الموت.

لونها الرمادي والصدى الذي اكتشفه الشاوي، جعل الرهبة حاضرة، وما في الآفاق لا يُبشر بشيء. النزر القليل من الطعام كان كافيا كي يحتفظ بالروح واندهاشها. فلم يتبرز غير مرة واحدة خلال الأيام الأربعة.

في مساء اليوم الرابع حملوه إلى قبة كبيرة عالية السقف، في أقصاها يجلس شخص جهم الملامح، مدجج بالسلاح، خلفه حارسان يلبسان جلبابين رماديين إلى الركبتين.

رئيس الحرس السلطاني كان حريصا على معرفة حقيقة هذا السائل الغريب، لهذا أوقفوه منهكا بنفس دهشته الأولى، خلفه حارسان فقِها جيدا عَمَلهما. من تكون؟ سأل الرئيس، وفي اللحظة التي استوعب فيها الشاوي السؤال، ارتفعت يمنى الحارس - الذي هو على يمينه - فاصطفقت بقفا علي لتحدث رنة في أذنيه، لكنه لم يكن يألف هذا الأسلوب فانتفض والتفت شادا بخناق الحارس ،يلكمه والحارس لا يحرك ساكنا لأنه ينتظر الأوامر الجديدة من رئيسه مباشرة، أمام هذا الاحتمال المفاجئ.

- أتركوه. أمرهم، ثم خاطبه: سيكون حسابك عسيرا، قل من أنت؟
- أنا علي بن الشاوي السويرح.
- أنا لا أسأل عن اسمك من تكون، وإنما لأي زاوية تنتمي، وأين صحْبَك؟
- أنا سارح غنم أولاد سليمان بالشاوية قبيلة المزامزة.
- بل أنتَ من الزاوية المعادية لمولاي السلطان.
- لا أعرف زوايا..
- إذن، أنتَ مع البرتغال.. أو الإسبان جاسوس لهم.
- أنا خادم لسيدي ومولاي السلطان.
- ولماذا لا تأتي إليه مباشرة... وتسأل عامة الناس عن موقع نوم السلطان ألا تعرف أن لا أحد يعرف أين ينام السلطان؟
- أقول دائما أنني خادم سيدي ومولاي السلطان. وقد جئت من الشاوية.
- نعم، نعرف أن أهل الشاوية هم أعداء جميع السلاطين. وهم شعب لا شرفاء فيهم، يحيون وسط السيبة والاقتتال.
- أنا ضايفت مولاي السلطان بالمزامزة. وقال لي إذا أردت شيئا فالحق بي إلى فاس.. وها أنا قد لحقت به.
- متى كان ذلك؟
- في الأيام الماطرة ..

أطرق رئيس الحرس قليلا، وكأنه تذكر المشهد. وحتى يتأكد. خرج فعاد بأحد الحرس الذي أكد رؤيته للشاوي:
- نعم، إنه الرجل الذي أقرى مولاي السلطان بالغابة وأكرمه.

خرجوا جميعا وبقي الرئيس مع علي الشاوي وقد تغيرت لهجته قليلا:
- والآن ماذا تريد من مولاي السلطان. أترضى أنت أن يهبّ عليه كل من أقراه بمناسبة أو بدونها؟
- أنا لا أريد شيئا غير تقبيل يديه الكريمتين.

- ولماذا؟
- توحشتهما؟
- قل ماذا تريد بالتحديد؟

- أريد - اللّه يقوي عليه الخير - غنما وبيتا وأرضا بالشاوية حتى أستطيع أن أحيى كباقي الناس وأتزوج من المزمزية.

ضحك الرجل، ثم دارى ضحكته، حيث بدا وكأنه ندم، فخرج وعاد بعد فترة حاملا كيسا من النقود الذهبية النفيسة التي لم يكن يتداولها غير أعيان يُعَدُّون على رؤوس أصابع اليدين والرجلين في الشاوية.

- عد إلى الشاوية فمعك ما تشتري به المزامزة، وتتزوج كل مزمزياته!!

***

دهشت الجبلية، صاحبة الفندق الذي لجأ إليه علي الشاوي من استغراق هذا الأخير في النوم ليومين متصلين بدون طعام، فلم تسأله وهو يخرج مساء إلى السوق ليقتني لنفسه ملابس تليق به، وأخرى للمزمزية، وفي نيته التهيؤ لشدّ رحاله نحو قبيلته على صهوة فرس سيختارها، بعدما يكون قد جربها بنفسه. انبهر وهو يتجول بفاس وبناياتها، بكل منحدراتها وأعاليها.. بناسها وبغالها وبالنظام والطرق وبالنساء الملثمات وكلام الناس الأملس واللهجات البربرية التي لا يفهمها. فاشترى كل لوازمه ثم دخل الحمام، وكانت أول مرة في عمره القصير الذي يدخل فيه بيتا مظلما ساخنا وبه أكثر من سطل خشبي وماء دافئ.

لبس السروال والفرجية والبرنس والبلغة الصفراء، ثم وضع الشدّ الأبيض على رأسه بعدما لفه أكثر من مرة وخرج نحو سي الغالي الحجام الذي حلق له تلك الشعيرات المتناثرة بوجهه القمحي، وقص من شعره.

أعجبته فاس ولطافتها، وقرر أن يقضي بعض الأيام الأخرى حتى يستريح، فكان ينام عند الجبلية بفندقها الذي يحتوي على طابق سفلي وهو عبارة عن وسعة كبيرة، إسطبل للبهائم، تحيط به بيوت، وطابق علوي وحيد، به بيوتات أيضا ضمنها كان يقطن علي الشاوي.

مجموع غرف فندق الجبلية عشرة، خمسة منها بالأسفل وأخرى مماثلة بالطابق العلوي، ثم غرفة كبيرة للأكل مجاورة لغرفة التبن والشعير.

في ذلك المطعم الصغير كان يتناول الخبز والحليب والخضر والحريرة وكل هذا، بالإضافة للمبيت، يساوي ريالا واحدا في اليوم.

بسرعة، تعَوَّدَ الشاوي على حياة دقيقة، فكان يستفيق فجرا، يذهب إلى الحمام ثم يعود للنوم من جديد إلى وقت الضحى، يفطر ثم يخرج نحو جامع القرويين بلباسه المعطر، فيجلس ليستمع - حتى ساعة العصر - إلى دروس في الأدب والشعر أو الفقه والشريعة.

يعود لتناول وجبة غذائه وينام قليلا، حوالي نصف ساعة، بعدها يتجه مرة نحو سي الغالي الحجام يجالسه، فيجد أناسا آخرين، يتحدثون في كل شيء، بعدما أوهمهم أنه مَلاَّك كبير - رغم صغر سنه - بالشاوية، وجاء إلى فاس من أجل إراحة جسده من متاعب المزامزة.

ومرة أخرى كان يقف أمام دوائر الحلقات فيسمع إلى الحكايات التي كان الفقيه المزمزي، معلمه الأول بأولاد سليمان، قد سرد فصولا منها عليهم، اقتنى من القرويين السيرة العنترية، فكان يسهر الليل طوله، يقرأها مثلما سيقرأ رحلة أبي زيد الهلالي، وقصة حمزة البهلوان... والسيرة النبوية.

شهر كامل مرَّ عليه وكأنه استعاد من خلاله حياته المدفونة في الحقول، ثم مرت أيام أخرى، قاربت الشهر أيضا، لم يستطع أن يقرأ فيها كتابا للطبري،

فأعاده للجامع وظل يفكر كثيرا في العودة.

- آسي الغالي بغيتك تنصحني بشي فقيه.
- واش بغيتيه! على شي تقاف أو أنت مريض ب...
- لا.. لا آسي الغالي بغيت فقيه عالم يتقي اللّه.
- راه أنت كتعرفوا وحضرت دروسه، سيدي الحاج الركراكي.

في الغد وبعد صلاة العشاء، اعترض علي الشاوي طريق الحاج الركراكي وهو يهُمُّ بالخروج. فجلسا وسأله الفقيه عن سبب انقطاعه عن حضور دروسه، فبين له الشاوي أنه عابر سبيل بفاس، ويحضر تلك الدروس فقط للاستئناس وحتى يتذكر ما تعلمه بالشاوية.
- طالب شفاعتك آسيدي الركراكي!

ربَّتَ على كتفه وسأله عن مبتغاه. فباح له بأنه يريد أن يرى السلطان. وحكى له الواقعة كلها... فصدَّقه وتعاطف معه ثم أخبره بالانتظار إلى يوم الجمعة بعد صلاة الظهر في الطريق الخلفي، حيث سيمر السلطان وهو على حصانه عائدا وسط محلته من المسجد إلى قصبته.

***

وقف بجانب الطريق ينتظر مرور موكب السلطان، ومن حين لآخر كان يتحسس بيده الشدّ الملفوف على رأسه.

الحرارة في متوسط الشهر العاشر. ابتدأت في الخفوت قليلا ولكنها كانت مرتفعة في جسم علي وقد لاح السلطان قادما على حصانه تحيط به حاشيته المدججة.

دقات قلبه تتعالى مع اقتراب الموكب، يرفع يده متحسسا الشد، وآن

يكون السلطان قبالته، يأخذ شده، ثم يمده بين يديه رافعا إياه فتظهر عبارة باللون الأحمر كتبت عليه (وهي حتما من وحي مشترك بين علي والفقيه الركراكي).

تقول لافتة الشد:
«آمولاي السلطان. جيتك مضيوم من الشاوية».

نظر إليها السلطان ثم همس لأحد أتباعه بكلام ما، وهو يواصل سيره، وكان الشاوي قد فكر أن يجرب حظه قبل رجوعه، ولن يخسر شيئا مادام المال معه ورؤيته للسلطان قد تفيده أكثر مما تؤذيه... ومثل هذا التفكير لم يمتلكه بهذا الوضوح قبل أن يقرأ تلك الكتب: هل صقل أبو زيد الهلالي حماسه ونفث حمزة البهلوان في روحه شَهْدَ المغامرة، وأعاد إليه عنترة وسيف... عمق الجسارة وحدودها الجارحة؟ ربما، ولهذا نظر السلطان إلى شدّه - الرسالة فتخيلها الشاوي بأنها بداية رحلته الجديدة نحو شيء جديد.

***

قال السلطان:
- ماهو ضيمك أيها الشاوي؟
- مولاي السلطان... أنا هو ذاك الشاوي...
- (مقاطعا) عارف.... عارف.... تكلم لي عن الشاوية.

السنبلة التي أثمرت، آن له أن يدرسها الآن بكل ما أوتي من جهد... «ريس آمولاي ادريس». حكى له عن المزامزة وامزاب وأولاد بوزيري والمذاكرة، أولاد حريز وكل القبائل، وعن السيبة، وطغيان المقدمين والشيوخ والقطاطعيا (اح! الفلاح أولاد مراح).

تحدث له طويلا عن حب المزامزة للسلطان وأنها راسلته طويلا كي ينقذها

(اخترع كل هذا من توهمات نفسه) ثم تحدث طويلا للسلطان عن خيرات الشاوية وأنه لو تم تنظيمها لباتت تُدر على الخزينة وحدها كل ما تدره الجهات الأخرى. حدسُ بإحساسه أن السلطان يختبره ويمتحن شيئا فيه، فانكبَّ يتحدث بطلاقة تلك الكتب التي مازالت أساليبها حية في وجدانه... مُبالغا مُهولا حينا، ومُغريا مُرغبا حينا آخر.

خرج وقد أخبره السلطان أن يعود إليه بعد يومين، وحينما عاد كان أول شيء يسمعه:

- يا علي الشاوي، لقد رضينا عنك، واخترنا أن ننصبك أول قائد للشاوية بظهير سنسلمك إياه... وقد خَبَرْنَاكَ وعرفناك فإن كنتَ رجلا لنا وحاسما في الحفاظ على هيبتنا، فتعرف كيف تقطع دابر العصيان حينا، وكيف تكون مرنا حينا آخر فلكَ شرف القيادة، أما إذا استهترت وزغت عما رسمناه لك فأهل الشاوية قبلنا سيوزعون دمك قبل لحمك.

قال علي في نفسه:

- هل أستحقُّ كل هذا، وهل أنا من سلالة باخويا الأسطوري أم حمزة البهلوان؟

بقي لأربعين يوما في ضيافة السلطان يتعلم كيفية الحكم وطريقة التراسل مع فاس ومراكش، والمكوس السنوية، والمجاملات... وغير ذلك من التعليمات التي حفظها وتشربها.

وكانت قد اتجهت فرقتان إلى الشاوية، الأولى نحو القصبة لتهيئتها وترميمها، أما الثانية فكانت تخبر المقدمين والشيوخ بكل جهات الشاوية بأن السلطان سيبعث للشاوية قيْدها.

أفراد كثيرون من الفرقتين لم يسلموا من القتل غيلة، وسادت الأرض بأفاعيها وعقاربها وناسها وحيواناتها وقببها وأوليائها رهبة هذا القائد القادم حيا.

II

قالَ علي الشّاوي

- **قال علي الشاوي**: «كنتُ سارحا للشياه، وها أنذا اليوم أرعى الشياطين والملائكة».

- **قال الراوي**: ما من امرأة أحبت شاويا إلا وتفقد ماضيها بالتأكيد، وحاضرها مع مستقبلها بالضرورة.

بمكان اسمه سطات في قلب قبائل المزامزة وأولاد سعيد، كانت القصبة المكان الذي وصله القايد علي الشاوي، خلفه وأمامه عدد من جيش السلطان. وجدَ في استقباله العديد من الأعيان الذين جاؤوا من أجل أن يكون القائد قيدا يقيِّدون به من شاؤوا، وجاءت وفود من الشيوخ والمقدمين، فذبحت البهائم وبحَّت حناجر الشيخات على جنبات القصبة.

استمرت الاحتفالات ثلاثة أيام. كان الجميع خلالها في لهو وقلق دفين. ينتظر خطبة القايد علي الشاوي التي وعدوهم بها. ولكنه وحده كان لا ينام وإنما يخطط، والقلق يُسائله بعنف: «هل أكون ابن المعتز؟ أم أني سأحقق أحلام حمزة الهلالي».

في ليل اليوم الأول بعث القايد بحرس خصوصيين للذهاب إلى قبيلة الشيخ الفقيه الهبطي والإتيان به. تعانقا، وباح له بأنه سيكون ملاكه وشيطانه في آن. في أية لحظة يمكن للموت أن يعانقنا.. وستلزمنا فترة طويلة من أجل الاستقرار.

يقف الشيخ الهبطي بقِصَر قامته واكتنازها وجلبابه الضرعة، والتصفيف الذي هيأ به قبه على رأسه، يقف وإلى يمينه علي الشاوي. وفي يساره موفد السلطان ووجوه أخرى تتصنع الجهامة. وقفوا جميعا على منصة خشبية عارية، أمام باب القصبة، في مواجهة المئات من أهل وأعيان الشاوية. والشيخ الهبطي يحمل بين يديه نص ظهير تعيين القائد من طرف السلطان على الشاوية وزمنها.

الشيخ الهبطي يقول:

«الحمد لله وحده[1] وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، والحمد لله الذي نظم بالخلافة شمل الدين والدنيا، وأعلى قدرها على كل قدر فكانت لها الدرجة العليا وأشرق شمسها في العوالم، وأنار بنورها المعالم، وأصلح بأمرها المعاش والمعاد، وألف بها قلوب العباد من الحاضر والآباد، وجعلها صونا للدماء والأموال والأعراض، وغل بها أيدي الجبابرة، فلم تصل إلى مفاسد الأغراض وقام بها أمر الخلق واستقام، وأقيمت الشرائع والحدود والأحكام، ونصب منارها علما هاديا، وأقامه إلى الحق داعيا، فآوى لظلها الوريف القوي والضعيف، والمشروف والشريف . فسبحان من قدر فهدى، ولم

يترك الإنسان سدى، بل أمره ونهاه وحذره من اتباع هواه وطوّقه للقيام بالنقل والفرض، وهو أحكم الحاكمين، ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين، فمن رحمته نصب الملوك، ومهد الطريق للسير والسلوك، ولو ترك الناس في فوضى لأكل بعضهم بعضا، وآل الأمر إلى الخراب وأفضى، ولولا الخلافة... لم تؤمن لنا سبل، وكان أضعفنا نهبا لأقوانا... والصلاة والسلام على المبعوث للأنام أصل الوجود ومبدأه وغاية الكمال ومنتهاه، سيد الآنام وإمام الأنبياء وقائد الأصفياء.

(يتوقف الشيخ الهبطي ليشرب جرعات من الماء ثم يمسح لحيته بيمناه ويتفقد بحركة منه قبّه فيعود ليحمل الورقة من جديد).

إن السلطان يا أهل الشاوية الكرام، قد رأى، دام له السدد، إكرامكم بقائد هُمام نشأ في عفة وصيانة، ومروءة وديانة، وعكوف على تحصيل العلم الشريف، ودؤوب على التحلي بحلى العمل المنيف، مع نجدة ونباهة وذكاء وفطانة ونزاهة، وقوة عزم وعلو همة، وتدبير وسياسة، وخبرة بالأمور وفراسة... فتى جمع

---

1 - نموذج من ظهائر التعيين السائد آنذاك.

اللّه له الصرامة والحِلم، وزاده بسطة في العلم، وألبسه الهيبة والوقار، ورقاه أعلى رتب العز والفخار وهو الجريء المقدام، الشهم الأبر الهمام، ذو النفس الطاهرة الزكية، والمآثر الظاهرة السنية، عالي القدر والشأن... باركه مولاي السلطان بحكمته التي تصيب في كل عصر وأوان... خديمنا الأرض علي بن الشاوي سليل أصهار الخلفاء الراشدين بعقله الذي يزن الثقلين وسنه لم تتجاوز العقدين، وقد عيناه قائدا على الشاوية الكبرى بكل أطرافها، بظهيرنا هذا تعيينا تاما محكم الشروط، وفيه وثيقة المربوط، جارية على سنن السنة والجماعة، سالمة من كل كلفة ومشقة وتباعة، رضينا بها وارتضيناها، ونلزمكم حكمها بالسمع والطاعة لها.

فهنيئا للشاوية العظمى إذ القينا مقاليدها إلى من يحمي حماها ويحقن دماها، ويكبت عداها ويدفع رداها، وينصر الشريعة ويعلن بحقيقة الحق، ويوضح معناها، وصلى اللّه على سيدنا محمد خاتم النبيئين وعلى آله وأصحابه أجمعين والراوين عنهم والمتلقين منهم آمين.

خاتم السلطان في يوم الأحد من أكتوبر سنة 1768 م

صمتٌ عام جعل الفقيه يهمس في أذن الشاوي قائلا: «لم ننتبه أن نجعل عيوننا وسط هؤلاء حتى يشعلوا فتيل التهليل والدعاء».

شرب الشاوي جرعة ماء ثم خاطب الجميع مرتجلا دون ورقة بين يديه : « باسم اللّه الرحمن الرحيم وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ... إن أكرمكم عند اللّه أتقاكم. صدق اله العظيم.

يا أهل الشاوية الكرام، هذا عهد جديد قد جاء، ولن نفرط فيه أبدا، ولن أزيد عما جاء في الظهير، ولكني أؤكد أن الشاوية هي روحي، وأنا حارسها لكم وللسلطان، ولن تصيبكم مصيبة أبدا والسلطان قد أوصاني بكم خيرا، لأحفظ أرواحكم وبهائمكم وأموالكم وكل ما تملكون.

أنا عبد لكم، سنعمل سويا على أن نكون منظمين، مثلما هناك في فاس، فلنتعاون، واسألوا الله لنا التوفيق كما نسأله نحن لكم. فهو لا يخيب رجاء عبده المطيع.

والسلام عليكم ورحمته تعالى وبركاته عليكم أجمعين».

ابتدأ التهليل والصراخ والصفير. وتدخل الشيخ الهبطي ليقول إنه على كل الشيوخ والمقدمين أن ينتظروا داخل القصبة.

لم يكن أحد من الشيوخ والمقدمين مطمئنا لعلي الشاوي، ولكنهم حاضرون على عكس بعضهم الذين رفضوا المجيء.

«أنا كنتُ حارسا للشياه وها أنذا اليوم أرعى الشياطين والملائكة». بهذا الكلام فاتحهم ثم أوصاهم أنهم باقون بأماكنهم. أما الذين رفضوا المجيء أمهلهم إذا لم يأتوا في الأيام القليلة القادمة إلى القصبة «فإننا سنرسل من يأتي برؤوسهم لنعلقها على باب قصبتنا العامرة.» ودعهم، وبقيَ لليال يبحث مع الشيخ الهبطي عن سبل الالتفاف على زمن الشاوية، ثم انضم إليهما المنصري (والذي سيسميه القائد بالمسمار، إذ انه تعرف عليه حينما وشي له بشخوص كانوا يتربصون به لقتله، ولما تأكد من كلامه ائتمنه وجعله حارسه الشخصي، بعد ذلك سيكلفه بالأمن الداخلي على الشاوية كلها).

اجتمع الثلاثة، طويلا، وناقشوا كثيرا قبل أن يصلوا إلى الصيغة التي سينظمون بها الشاوية وهو ما دوَّنه الشيخ الهبطي:

بالنسبة لتنظيم الحرس والجيش لابد من العمل على شيئين اثنين: أولا تثبيت الأمن الداخلي للشاوية، والحرص على سلامة القائد.

ثانيا: جمع المكوس والهبات.

لهذا، فإن الجيش الخاص بالشاوية سينقسم إلى ثلاثة أقسام. القسم الأول منه خاص بحراسة القائد والقصبة، أما القسم الثاني فهو خاص أيضا ويسمى «الجراد» الذي يجمع أخبار الشاوية تحت صفات مختلفة من عطارين ومدعين

للجنون وشيخات وفقهاء وكهنة وحصادين... في حين أن القسم الثالث يكون بلباسه الرسمي، مدججا بسلاحه، مستعدا على الدوام كي يدخل طاحونة الرحى في أي وقت.

أما كيف يتم تجنيد هذا الجيش (بطانة القائد، عين القائد: الجراد، دروع القائد) فيجب أن يكون من قبائل المزامزة. أولاد سليمان، وأولاد المسناوي، ومن قبائل الشيخ الهبطي الذين يثق فيهم. من عائلات فقيرة... شباب في العشرين من علي الشاوي لا تزيد أو تنقص بقليل.

كان تدريبا قاسيا على استعمال السلاح والتراسل. والفهم جيدا بأن كل شيء يمكن أن يتم تدميره في سبيل حياة القائد. وأنهم يدافعون عن الشاوية من الذين ترسلهم دكالة وعبدة، وقد كانت مجموعة من الأصفياء والخلصاء للقائد هي التي تقوم بمهام التدريب. واقتناء السلاح والتكوين النفسي للفئات الثلاث تحت الشعار الذي تبناه القائد : الأمان أولا ثم السيادة ثانيا والعز ثالثا، والطوفان أخيرا.

هكذا،وبعد ثمانية شهور من العمل والتخطيط، تم استدعاء الشيوخ والمقدمين لاجتماع مشهود، فجاؤوا. ومن لم يأت جيء برأسه ليعلق على الباب العالي للقصبة، سبعة عشر رأسا طرية.

وقف الهبطي وسط الشموع في ذلك الاجتماع الذي ابتدأ متأخرا في الليل، وقد بدت عليه إمارات الإنهاك: «رعايانا الأوفياء من شيوخ ومقدمين، إن سيدي القائد علي الشاوي سيقول لكم كلاما هو قرار سينفذ قبل أن ننهي جمعنا هذا، فلنقف احتراما لقائدنا. وله كامل حبنا».

يجلس الهبطي، فيقف علي وقد أزال برنسه حيث بدا إلى جانب الفقيه كأحد أبنائه، بعينين يتطاير منهما شرر شبيه بتلك الشعلة اللاهبة من النور:
«أيها الشيوخ والمقدمين، جمعناكم انيوم باش نقول لكم بأنه فيكم الخونة

الذين لا يستحقون أن يكونوا معنا في هذا الاجتماع، وإنما رؤوسهم فقط هي التي كان عليها أن تكون على باب القصبة... هم سبب الفساد والعصيان، وقد عينني مولاي السلطان لهذا الغرض».

ثم استمر يستعرض تاريخ الخيانة في الإسلام والعهود، وعقوبتها في الدنيا والآخرة، وكان يضيف من قراءاته للسير الشعبية أو من مشاهد القيامة كما قرأها في كناش التوهم للمحاسبي، وبين الترهيب والترغيب زرع في نفوسهم حمى مشتعلة، ولما كان الفجر وصلت خطبة القائد إلى مربط فرسها:

«قسمنا الشاوية إلى أربع جهات كبرى، قصبة سطات هي مركزها، وكل جهة ستشرف عليها مشيخة يرأسها شيخ، تعمل تحت إمرته المباشرة خمسة وعشرون مقدما يجتمع بهم بشكل مضبوط مرة كل شهر، وأسبوعيا في حالات الطوارئ... وهم المكلفون بجمع المكوس وباقي الفروض.

وعليه، فقد أعفينا منكم من لا صلاح ولا فلاح منه أو من لم يعد يقوى على العمل، وسنحتفظ ببعضكم للعمل معنا في القصبة. ويوم غد سنخبركم بالتعيينات الجديدة».

كانت تلك الليلة كافية للحسم في العديد من الأمور، أو كما قال المسمار للشيخ الهبطي إنها ليلة قتل المش، وتصفية حسابات القدر وما قد يرشح به في يوم من الأيام، وطيلة النهار كان الموعد مع جمع الشيوخ الأربعة، حيث علمهم طريقة جمع المكوس، وبعث الأخبار يوميا كما عيَّن لكل شيخ مساعدين، يقومان بالمراسلة والدعاية، وهما في الحقيقة مسماران عينهما المنصري.

في الليلة الثانية، افتتح القايد علي الشاوي الجلسة قائلا في جو مشحون بالرهبة والترقب: «أود في البداية أن أقول وأشهد أنه باسمي قد عينتُ الشيخ الهبطي نائبا لي وكاتبا ومفتيا وقاضيا للشاوية كما عينتُ بالمناسبة ذاتها المنصري المسمار حارسا عاما وحافظا لأمن الشاوية:

نص تعيين الشيخ الهبطي	نص تعيين المسمار المنصري
نحن علي الشاوي، قائد الشاوية الخصيبة بأمر من سلطان البلاد، والشاوية تمر بأمور عصيبة تخص تنظيمها وتهدئة لأوضاعها الخطيرة رأينا: تعيين الشيخ الفقيه العالم العلامة سليل الجهابذة الهبطي بن الهبطي بن علال الحريزي، أبا روحيا للشاوية نائبنا وكاتبنا وقاضينا. والله الموفق لأعمالنا والمسدد لخطواتنا. علي الشاوي بتاريخ .....1768 م.	نحن علي الشاوي، قائد الشاوية السعيدة، بأمر منا لأجل أمن أرضنا المباركة، رأينا: تعيين خديمنا المسمار المنصري الزطاطي في منصب حارسنا الأول والمكلف بأمن الشاوية وأخبارها. والله الموفق لأعمالنا والمسدد لخطواتنا. علي الشاوي بتاريخ .....1768 م.

أما بخصوص الجهات الأربع فسيشغلها الشيوخ وهم:

- الشيخ النطاح على مركز مديونة وأنفا، وما حاط بهما من قبائل مرسومة الحدود.

- الشيخة الحاجة زهيرو على مركز أولاد بوزيري، أولاد سعيد، وما حاط بهما من قبائل مرسومة الحدود.

- الشيخ بن العياشي على مركز المزامزة وامزاب، وما حاط بهما من قائل مرسومة الحدود.

اندهشوا كيف تقود الحاجة زهيرو مشيخة بكاملها، واندهشوا أكثر والمنصري يتلو أسماء المقدمين الجدد، خمسة وعشرون في كل مشيخة. كما سيتلو الصحيفة السوداء بأسماء المعفيين وبأسماء الذين سيحاكمون في نفس اليوم، فانفجر الرعب داخليا وانفضح على وجوه الجميع.

يجلس الشيخ الهبطي قاضيا أمامه أربعة وخمسون من مقدمين وشيوخ صاح فيهم: «نظرا لثبوت الخيانة، وتعاملكم مع القطاطعية وطول أياديكم في الفسق والفساد وإضمار سوء النية للقائد، وأيضا للسلطان: باسم علي الشاوي وباسم السلطان وباسمي نصدر حكمنا عليكم بنزع كل ما تملكون لصالح

القصبة وستعلق رؤوس أغلبكم مع بزوغ الفجر الجديد على سور القصبة، ويسجن ما تبقى».

انفلتت الرهبة من لجامها وتسربت بسرعة في كل جسد الشاوية.

عاد كل واحد إلى موقعه واستمر الثلاثة في اشتغال يومي متواصل، فسلحوا القصبة، وسرحوا الجراد والعيون، وبعثوا برسائل متوالية لطمأنة السلطان. وهكذا تلغمت الشاوية بالمسامير من مختلف الأنواع، فقهاء ومجانين وعطارين ورعاة.. مسامير تلتقط كل الأخبار الصغيرة والكبيرة، عن الناس والبهائم والأشجار والمراعي والآبار وأيضا الشيوخ والمقدمين والقبائل والدواوير. أما بداخل القصبة فهناك غرفة يسكنها، على الدوام، خمسة أفراد يعرفون القراءة والكتابة. يسهرون على ملفات الشيوخ والمقدمين تحت إشراف المنصري، وغرفة أخرى، لجمع أخبار اللصوص والقطاطعية والأعيان. ثم غرفة ثالثة تهتم بأخبار الزوايا. من حين لآخر، كان القائد والهبطي والمسمار يطلعون على هذه الأوراق لتحديد الآفاق والخطط. فالتأسيس يتطلب مجهودات استثنائية جعلت الشاوي ينسي حياته الخاصة لفترة من الزمن.

سنة كاملة وما يزيد، وهو غارق في ظلام الشاوية، ارتبط بحميمية مع الشيخ الهبطي المخلص بكل جوارحه.

- يا شيخنا الهبطي، إني لم أتجاوز بعد الواحدة والعشرين من عمري وأحس كأنني بلغت الشيخوخة، ماذا أفعل؟

- شوفْ آعليوات آولدي، يلزمنا تنظيم نفوسنا.

- كيف، اعْطينا شي فتوى؟

كان الحديث بينهما، وهما على انفراد، مفضوحا بين صديقين اتحدت روحهما التوأم، فلن تغضب الروح من روحها، ولكنهما كلما كانا بمجلس مع الآخرين أبدى الهبطي الاحترام والتبجيل للقائد فيختار الكلمات اللائقة، وكثيرا ما همس للقائد بأنه مثل ابنه، يحبه لأنه داهية في ظاهره، قائد ملائكي

يستبطن شيطانا رفيع المستوى.

آن للقائد أن يسرج صهوة وجدانه الرقيق والحرون، فاستقدم المزمزية، وحده الشيخ الهبطي الذي رآها وعرفها، وستسكن في القصبة دون أن يعرف أحد أن القائد متزوج، هناك، في ذلك الباب الذي يقود لمنزل واسع له باب خلفي لا يعرفه أي أحد يتصل بوادي بوموسى ومنه إلى الفراغ.

- «نعم يا مزمزية لا أريد أن يعرفك أحد غير الهبطي... الشاوية غدّارة وأخشى أن يقع لي مكروه فيفعلون بك الأفاعيل، خصوصا، إذا علموا أنك بعد الشاوية، أعز من أحب. لهذا يا مزمزية إذا وقع لي شيء ما، وكما قلت للهبطي، فخذي ذلك الصندوق بأمواله واذهبي إلى أولاد حريز.... سيشتري فيه الهبطي عزيبا وستذهبين لرؤيته ومعرفة الطريق إليه وستكون كل رسومه باسمك... ولنضبط كل الإجراءات فيما بعد».

كرر لها هذا الكلام كثيرا، وأفهمها أنه قد يظهر عشقه لنساء كثيرات، وستُهدى له أيضا فتيات، وهذا لا يجب أن يغير شيئا من المزمزية، «فالمزمزية هي زوج الحلال «.. قال للهبطي ثم جلسا لتقسيم النهار مثلما قسما الشاوية إلى جهات.

في الصباح، وإلى حدود الظهيرة، فترة النظر في شؤون الشاوية وأحوالها، وما بين الظهيرة وساعة العصر للقيلولة، ما تبقى من ساعات إلى حدود الغروب فهو للاستقبال والمقاضاة، أما ستور الليل فإنها تختزن للقائد والهبطي جلسات مع الهداوي شاعر القايد، وتعريضات بنت الرحالية ورقصاتها، وحكايات زمن الشاوية.

هكذا قسم الجهات إلى رغبات دون أن ينسى المزمزية وحديثه معها، أو جلوسه مع والدها الكسيح، وأخيها أو مع أفراد من قبيلتها الذين هم مستعدون للموت من أجل حياة القائد، صهرهم ومفخرتهم. حياة تسير كما خططوا لها،

باستثناء بعض القلاقل والمؤامرات الصغرى، وأيضا المؤامرة التي كان يهيئ لها الشيخ النطاح، فعلم بها من طرف المسامير المبثوثة بعناية من جانب المنصري.

استدعى المسمار كل المقدمين الذين كانوا تحت إمرة النطاح، فاستفسرهم عن حدود علمهم بما كان يدبره شيخهم. أنكروا، وكان يعلم أن هناك متعاونين في المؤامرة، ثم أخرج لهم الشيخ النطاح مقيدا ففك قيوده وصاح:«اقتسموه بالعدل فهو شيخكم، وكل واحد منكم ينتف لحما أو عظما، يحمله إلى الدوار ويعلقه في مدخله، واتركوا لقصبتنا الرأس». كانت الرهبة قد توطنت في النفوس، ورسائل الرضا السلطانية تأتي بعد كل هدية من القايد، حاملة الجياد والزرع والسمن والعسل، وبعض الرؤوس الآدمية مصحوبة برسالة تقول: جموع الشاوية تحييك وتتمنى رؤية طلعتك البهية... وهذه الرؤوس هي آخر رؤوس كان بداخلها عقل ليس فيه عقل».

كلما أنجز خطوة اختلى بالشيخ الهبطي في القبة المسماة بغرفة العمليات، هناك سيجدان فضاء لا أحد يعرف أسراره، بل إن كل من في القصبة يتوهم أن قبب غرفة العمليات التي لم يدخلها أحد وهي ذات أبواب سرية.. تضم كل أسرار الشاوية.

قبة واسعة يتوسطها حوض دائري، مغلفة بأفرشة مزركشة ودائمة البخور مع صورتين مرسومتين على وجه الحائطين، صورة سيدنا علي وهو يركب السرحاني حاملا سيفه البتار يقطع الرؤوس، أما الصورة الثانية فهي لحصان بجناحين، يبدو طائرا في ليل السماء ذات الأنجم اللامعة بالإضافة إلى مروحة فكر فيها الشيخ الهبطي الذي قال إنها توجد ببلاد العراق وشيراز. هي من الخيش، مستطيلة الشكل في حجم شراع السفينة يشد بها حبل وتعلق في سقف القبة تبل بالماء وترش بماء الورد، وكلما أحس القائد وصحبه الصهد جذب الحبل، فتذهب المروحة بطول القبة، وتجيء ويهب منها نسيم ذو رائحة يصفها الهداوي برائحة الجنة.

أكلٌ وفير من يد طباخين مرابطين. وفواكه تدخل من الأبواب السرية كما فتيات في عمر الزهور.

- اختر أيها الشيخ الوقور الفتاة التي أعجبتك. يضحك الهبطي حتى يسقط على قفاه.

- لا.. لا اسيد القايد.

- بويا الهبطي... انظر إلى تلك ذات الحاجب الخروبي ليلها سيكون طويلا.

ومن حين لآخر سيقوم الهبطي ويشد فتاة من خصرها العاري ثم يراقصها وهو يصرخ ثملا: «شؤون الدولة والأمة والأرض كلها في هذه الزلزلة.. قم وقل شعرك يا هداوي. إننا مع الخالدين نحيا موتنا».

ينشدهم الهداوي من شعره أو مما يحفظه ويختلط عليه.. حتى إنه كان ينسبه لنفسه، ويُحَوِّرُ من الأسماء ما يناسب اللحظة:

إن عز من خير الأنام مزار — فلنا بزوره نجلة واستبشار
هذا القائد وابن أكرم مرسل — وسليل من تمطى له الأكوار
أعز قائد وأشرف حاكم — تشرفت بحكم يمينه الأحرار

قام الشيخ الهبطي الحافظ للنثر المكنون إلى جنب النثر العاري المُتغنج... احتمى بذاكرته، ثم انطلق لسانه يُعَبر عما في تلك الخابية المشتعلة، والبكر تراقصه بغُنج واشتهاء. قال للشاوي.. دون أن يلتفت نحوه وإنما بقي شروده ساقطا على خصرها بحركاته الوسيطة: «ستسألني يا علي كما سألوا الأعرابي في «تحفة العروس»:

أي النساء أعظم عندك؟ أجيبك: «البَيْضَاءُ العَطِرَةُ اللَّينَةُ الخَفِرَةُ، العَظِيمَةُ المَتَاعِ، الشَّهِيَّةُ لِلْجِمَاعِ، التي إِذَا ضُوجِعَتْ أَنَّتْ وإِذَا تُرِكَتْ حَنَّتْ».

ثم ستسألني: ما الحُبُّ؟ فأقولُ لكَ عِناق الحبيب، ولثمُ الثغر الشبيب. والأخذُ منَ الحديث بنصيب... والجَمْعُ بينَ الرُّكْبَة والوَريد، ورهزٌ يُوقظُ النوّام. وفِعلٌ يوصبُ الآثام».

ثم قام فَحَوَّلَ الشمعدانة من مكانها، مُطفِئا نورها، ورمى بجملة ستعرف طريقها إلى مسامع علي رغم الظلام: «قال بعض القياد: «الإماء ألذ مُجامعة. وأغلب شهوة وأحسن في التبذل، وآنق في التدلل». ثم كَمَشَ على الجسد البضّ الذي تراخت مفاصله وسقط أرضا.. والشيخ الهبطي يبحث عن ملاذ نهائي ومطلق لاشتهاء متأجج..» وإنْ أردتها اشتهتْ أو تركتها انتهتْ.. تحملق عيناها وتحمرّ وجنتاها، وتذبذبُ شفتيها وتبادر الوثبة».

ضاع الكلام وسط الرغبة و«التوجع من غير ألم»، ووسط ظلام خلع عنه شموعه المتأخرة كما خلع الفقيه الهبطي فَرَجِيَّتَهُ ومعها حياءه التاريخي، وكل ما يمكن أن يعطل إيقاعه.

يتمطّى علي الشاوي في ذلك الليل الذي تُضيئه بهجة عابرة، أشعار الهداوي المرفوع تُضفي على الطقس شاعرية ساحرة، رغم أن الهداوي كان إلى عهد قريب بائع سباسا متجول بين امزاب وسيدي حجاج والمزامزة، ثم كتبَ قصيدة، نسخها له أحد الفقهاء فقدمَها للقايد الذي ارتضاه شاعرا له... رغم أنه لا يقرأ ولا يكتب وإنما ذاكرته بلورية وحافظة. والهداوي لن يقول شعرا أو يشارك في الضحك إلا حينما تنتفخ أوداجه وتحمر بفعل الكيف الذي يدخنه بشراهة... فكان طقسا يتلهى بتقلباته كل من الهبطي والقايد.

***

شخص واحد هو الذي كان يستطيع الجهر بالحق في وجه القايد، فيقول للناس بأن الرؤوس المعلقة على باب القصبة تكفي لتجعل منه قاتلا وسفاحا. ويقول أيضا بأن شر البلية على الشاوية هو المنصري ولا سلام بدون احتراء

الإنسان. مرات كثيرة، استأذن فيها المسمار القائد لقتل الطاهر المزمزي لكن الشيخ الهبطي كان يتدخل بصرامة ليمنع أي اقتراب منه، وقد فهم المسمار لاحقا إحجام القائد الهبطي على تصفية هذا المعارض، لأنه فضلا عن عرصته وقطيع غنمه فله أخوال في دكالة، هم رؤوس الحربة هناك، «ولو علموا أننا فعلنا به شيئا لهاجمونا، ونحن الآن في غير حاجة إلى تصريف جهودنا في معارك خارجية»، ولم يمانع القايد على الشاوي أبدا في الالتقاء بالطاهر المزمزي داخل القصبة أو بالعرصة، فيحاوره، بل كثيرا ما بحث القائد عن المزمزي في لحظات تضيق فيها نفسه وكأنه يبحث عن مِرآة يبرر أمامها أخطاءه.

- من جعل السكينة بالشاوية؟ من قسَّمها إلى جهات معلومة، وجعل النظام هو القاعدة والأساس؟ من أوقف اللصوص؟ من....

- ولكنك مستبد قاتل، يمناك هي المنصري، وكان بالإمكان أن تستغل قوتك وذكاءك في أشياء أفضل بطريقة أخرى.

- أنا أمارس الكي بالنار على جرح فيه الدود، سيتألم جسد الشاوية ولكنه سيبرأ قريبا.

- والمنصري القاتل؟

- إنه جفَّاف زمن الشاوية..

- والرؤوس المعلقة على سور القصبة؟

- لابد من ضحايا مثلما لابد من حرائق في الصيف الغزير..

- اللصوص الحقيقيون مازالوا أسيادا يحكمون!

- أعرفُ. وليس سهلا التخلص منهم.

كان يشعر براحة عميقة تعقب كل حديث مع الطاهر، وقد باح له مرة بقول قال فيه:

- أنت لا تعرف أن المخزن الذي وضعني هنا، هو نفسه الذي يشجع بطرق أخرى حروب القبائل، ويشرف على أعيان يفعلون بكل شيء ما شاؤوا، إن تاريخ المخزن يرفض أي تكتل ديني كان، أم عصبي وقبلي، فيسعى إلى خلق

بذور التفرقة وإلهاء ما تبقى في حروب وهمية...

أتفهم الآن لماذا أمشي بخطوات ليست لي؟ أتفهم أيضا بأنني ابن عائلة قُتلت غيلة. فبقيتُ حيا عن طريق الخطأ، لأن والدي رفض الانصياع لمطامعهم وقال لا. إنني أقول لقاتل إخوتي وأبوي، أنا من يحرسكم ويحميكم، حتى يأمنوا جانبي، ولا أقول لك هذا الكلام لتتراجع، بل استمر في انتقادك، وانس كل ما قلته لك، إني أعرف أنك شهم ولن تفشي كلامنا لأحد...»

استطاع علي الشاوي خلال ما مر من خمس سنوات أن يكسب عطف السلطان عن طريق الرسائل، والهدايا السنوية التي كانت تصل في وقتها المحدد. وفي ذلك الخريف أيضا وضعت المزمزية بكرها الأول، فسماه القائد باسم الطاهر، ولما سألته الأم قال لها:

«أسميته على اسم صديق لي أحبه كثيرا». وهكذا ولد الطاهر دون أن يعلم به غير والد المزمزية وأخوها والهبطي.

بعث السلطان برسالة يقول له فيها انه يضم تحت يده جيشا احتياطيا من خمسة آلاف من شباب الشاوية الأقوياء، وهذا الجيش هو رهن إشارة السلطان متى شاء. وبدوره كان السلطان يبعث بالرسائل المشجعة وهداياه الرمزية، ومن بينها سيف ذهبي وظهائر عيَّنَ منها الشيخ الهبطي أحد المفتين العشرة بإقليم المغرب الأقصى كله، يحضر احتفالات المولد النبوي، والاحتفالات الخاصة بالبيعة والزواج السلطاني.

كما حقق القايد أيضا، في السنوات الثلاث الموالية، سلطته على كل الشاوية فعيَّن من جديد، وحاكم وقتلَ حتى تعب وبات يحس بالآم مبرحة في كل جسده، ثم عاد إلى الليل وجلسات الهبطي مع ملائكة العلوة كما أسماهن الهداوي، وزكّى الشيخ الهبطي التسمية.

كان الهبطي قد انتهى من تدوين كناش «زمن الشاوية» الذي دوَّنَ فيه

العديد من الحكايات، والتي كان يخلطها بسير الأنبياء والشعراء وأولياء الشاوية المفقودين، وكذا بسيرة علي وباخويا والمزمزية.

- غنّ لنا من كناشك يا هبطي..

- أنا لا أغني بل أحكي..

الشيخ الهبطي يحكي:

....وكانت امزاب هي أم العلوة، ناسها بهم حميَّة، وعندهم عصبية... وهي طفل الشاوية الشقي الذي أرعبَ السهول الأخرى أزمان السيبة، وكان العطار يخشى على نفسه من القدر الغادر الذي قد يرديه قتيلا مرميا بإحدى المطامير...

حدثَ أنه في زمن الشاوية كثُر الفساد، وعمَّ الطيش كل العباد حتى انغلق باب الرحمة، والعلوة آنذاك هي الاسم الحركي لامزاب وقبائلها، فتاهت الأيام في شعاب الزهور والاستهتار، حيث كانت كل ليلة لا تمر دون سطو ووزيعة، وكان صالح ولد مي زهرة في أهل «رأس العين» يقول: «نحن لسنا فلاحين، بل سادة العلوة الجدد، لا نحرث، بل هم يحرثون ونحن نأخذ، يشترون ونحن نتسلم، يلدون ونحن نتزوج».

الخمسة والأربعون القادمون من جهات محسوبة، التقوا في المكان الموعود من تلك الربوة، التي ستصبح حوض نعناع شاسع، ثم توزعوا، كل واحد منهم يتأبط كرامته في سهول العلوة وحدها: من سيدي حجاج إلى سيدي امحمد البهلول، إلى فاطنة الكحيلة بنت الحرَّار، الأولياء الجدد مقابل السادة الجدد لزمن الشاوية الأول، كل واحد يحتفظ بطريقته، وأسرارها التي جعلت حوش البهلول، في ذلك الفضاء لا يدخله إلا من يجيد الشرب والرقص مع الشيخات.أما فاطنة الكحيلة بنت الحرَّار، فإنها منسية مثل المشيئة التي اخترعت لها كرامة في حجم شؤون المرأة، وفاطنة هي المرأة الوحيدة، وسط الأولياء القادمين من الجهات المعلومة وغير المعلومة حين جلسوا بأعلى الربوة فسألوها أن تطعمهم

شيئا. تبسمت مثل أم حنون أتعبها الوجد والمنفى وقالت:» وفين بركتكم آ الشرفاء؟ «لم تكد. كلماتها تجف صداها حتى شوهدت الرحى تدور لوحدها تطحن الزرع.. والأقدار الطينية تلك قاعدة في زهو المنتصر على نار أشعلتها نفس الأيدي اللامرئية التي أدارت الرحى.. وعين الماء التي فاضت نبعا معينا من تحت أقدامها. ولن يشك أحد بأن امحمد البهلول كان قد عشقها وهامَ في حُبها أيما هيام، وكانت عيون «حجاج» الكهلة توحي بفيض الألم والحب لفاطنة دون أن يفصح عن لواعجه الملتهبة لأن ذلك قد يُفقده وَقَارَهُ المعهود.

بشرتها السمراء الترابية جعلت البهلول يقول في لونها وهو يبوح لحجاج وسيدي امْبَارك بغرامه «إن لونها ترس وشعرها سدرة نبق تحتها كنز وفوقها بحر من الأشواق».

توزعوا فلم يبق منهم غير سبعة، سيتفرقون بعد قليل: حجاج يحمل بركاته إلى المنطقة التي ستسمى باسمه، وابن احمد إلى حوشه أيضا. قاموا صباحا فلم يجدوا فاطنة، وتبينوا أنها استقرت بوادي العلوة محتجبة عن عيون الآدميين... آنذاك غادروا واستقروا بأمكنتهم الجديدة، بألمهم الذي يُغلف كرامات لم تغير من لون زمن الشاوية شيئا.

كل واحد منهم بنى لنفسه حوشا، وبجانبه سدرة نبق يتماهى فيها مع أحلامه، وتعقد النساء عليها خيوط همومهن، والسدرة بدورها تحلم أن تأتي فاطنة في يوم ما بخيطها ولونها الفصيح، أما سيدي امحمد البهلول فقد انغمسَ عاشقا في عبادة الروح والكَلِم حتى مات، فسُمِّيَ «عزري العلوة» شهيد لون وكرامة فاطنة بنت الحرار. وما نسيت العلوة أبدا أن بويا الغليمي وسيدي بوعبيد، ركراكة الأحرار هما حُفاظ الشاوية وأن طير العلوة هو سيدي حجاج، الرجل الكهل الذي كان دائم السعادة بأبنائه، مثلما كان دائم التذكر لفاطنة الكحيلة، وسيدي امحمد البهلول، العاشق الجريح ونهاياته التي تركها لحفدته كي يتمموها، مثلما ترك كل واحد في هذه الشاوية للآخر أوهامه من أجل حرثها في أكتوبر».

تاريخ من الحكي والأحلام، حيث كانت الشاوية حاضرة... كامرأة تستدعي أرحامها المتعددة في آن واحد، وعلي الشاوي لوحده رحم يلتهب حتى صار مشبعا بحب المزمزية.. الوفية، دائما، لتلك العلاقة الرعوية الأولى، التي تجمع بين خروف وأنثاه.. فائضا بتلك الحكايات التي تشربته أحداثها بفداحة.

بلغَ التعب منه مبلغا فابتنى لنفسه قبة بيضاء بالعلوة، دخلها لأسبوع ثم رجع ضجرا يضحك من نفسه ويحكي للفقيه أنه اختلى بنفسه وكان طول الوقت يفكر في مهاجمة السلطان وتنصيب نفسه سلطانا على الوطن، عاصمته الشاوية،آنذاك سأحرر الثغور الشمالية والجنوبية بسيفي الذهبي وسيكون فراشي وسلطاني على فرسي.. كنتُ.. كنتُ.. ولكني يا هبوط، أنتَ تعرف النهاية».

قال الشاوي للمنصري ساخرا:

- «هل نجد عندك بعض الرؤوس الطرية حتى نرسلها إلى فاس».

في حديثه مراثي وأفراح الشاوية، وسخرية حية تتجدد دماؤها، وهو حريص دوما، كي يُطعم فقراء السهول، ويقدم الهبات والعطايا، ويتلقى من الأعيان هداياهم قمحا وشعيرا وذرة وغنما وفتيات.. كان يقدم البعض منهن إلى الشيخ الهبطي، والبعض يتركه لنفسه والبعض الآخر يهديه بدوره.

دعا إلى استدعاء مائة ملاك من كل جهات الشاوية، ممن يملكون مئات الهكتارات، جلس إليهم بعدما أطعمهم ثلاثة أيام من كل ما يشتهون وهم في توجس مستمر.

خاطبهم الفقيه الشيخ الهبطي:

«إن القايد تحت يده سيف ذهبي أهداه إياه السلطان، والذي كان قد ورثه عن أجداده الكرام... وقال له: يا علي، يا علي، يا علي إننا سلمناك الشاوية أمانة في عنقك وسلمناك معها أعناق أهلها، فمن رضيت عنه رضينا به ، ومن

عصاك فقد عصانا ولك أن تقطع رأسه بهذا السيف الشريف».

لم يخطئ حدسهم بتاتا، وتيقنوا أن أرواحهم على شفة من الجحيم، لكن خطبة المسمار ستوضح لهم بعضا مما غَمض...» القايد انتخبكم لتبيعوه أراضيكم، وقد كتبَ مُفتي السلطان، الشيخ المؤمن بالله الفقيه الهبطي، كل العقود ولا تنقصها سوى بصماتكم المباركة والعقود الموجودة عندكم، سلموا أراضيكم الضيقة مقابل أرواحكم الشاسعة، وسيترك لكم سيدي القايد بمشيئته حطة وبعض البهائم، ولن يغادر أحدكم الشاوية إلا بعلمه الخاص.. والويل والثبور لكل من خالف أمرا من هذه الأمور».

استطاع أن يتنفس الصعداء من عملية خلفت له سبعة وعشرين ألف هكتار، تمكن من توزيعها على أفراد وجماعات من الفلاحين، هادفا من وراء ذلك كسب عطف آلاف العائلات بالشاوية، ثم تأمين الهدية السنوية للسلطان ورواتب الجنود عنده. وأخيرا تكسير الإقطاع القديم الذي كان يتهدده دائما.

خطوة كبيرة ستخلف القلاقل لسنتين قبل أن تنفصم العرى بين القطاطعية والملاكين الذين نفذت أموالهم، وهي السنة التي وضعت فيها المزمزية وليدها الثاني وقد أسماه أبوه هتهوت.

سنتان هيأتا للقايد والهبطي والمسمار رسمَ شرايين جديدة للجهات، فيصبح العطارون المتجولون بمجموع سهول الجهات الخيط السلكي الرصين، والمرتبط مع خيوط الفقهاء المنتشرين في كل الدواوير.

ذلك الثوب الأبيض الملفوف على رأسه، كلما استدار شَكَّل دوائر متلاصقة تكبر في كل دورة، ثوب أبيض من نسيج الخيط، ليس في مقدور أي أحد أن يضعه على رأسه، سيقولون عنه الشدُّ لما تكون طياته محسوبة ومتوازنة، ولكنه يسمى رزة حينما يستوي عاليا بلفّاته الكثيرة والمتناسقة والتي يضعها الشاوي والشيخ الهبطي يوم الجمعة أثناء جلوسه للقضاء وتطبيق الشريعة،

ووحده المؤقت الرزاز[2] يلبسهما إياها بلفّاته السحرية، أما الأيام الأخرى فهي مرهونة للشد الصقيل، والذي كان القائد كلما دخل القصبة نزعه ورماه على كتفه الأيسر. أما الشيخ الهبطي فإن عادته في لف الشد أصبحت مألوفة للجميع ذلك أن اللفة الأخيرة يتركها على الدوام متدلية إلى حدود إبطه، ومن حين لآخر كان يمسح به السيول الرقيقة من عرق تجمع إثر نقط بيضاء تنطعت من مسام جبينه الذي سيشرق في لحظات الزهو... والهداوي يبيح لصوته أن يتغنى بالبهلوليات على نهر أم الربيع زائرات يغسلن زمن البهالة على المعاريف وأولاد امراح.

يقف علي وسط القصبة فيسأل:

- أين الزمن؟ (لم يرد عليه أحد، فأعاد السؤال وهو يأمر البواب بفتح الباب).

- أين المؤقت؟

- الساعة لله آ سيدي، الآن ما زالت أمام غروب الشمس مسافة ساعتين (أجابه المؤقت الرزاز بعدما رفع بصره إلى السماء بنظرة سريعة فاحصة بين قرص الشمس وحدود الأرض).

- وكم من الزمن باق على غروب الشاوية؟

- .....

- أي وقت تَعُدُّ به زمننا، وقت القائد أم وقت السلطان؟

- .....

عاد عليٌّ والجميع يتبعه، فدخل إلى القبة، وقد لاحظ الشيخ الهبطي احمرارا على وجه المؤقت.

- إننا نسير وفق زمن الشاوية، شاويتنا يا قائد .(قال الهبطي).

2 - المؤقت الرزاز المراكشي ترعرعا، الرحماني ولادة، يشغل في القصبة وظيفتي ضبط الوقت عن طريق معرفة دقيقة بالنجوم والأوقات والشمس والفصول قبل أن يأتيه القائد علي من فرنسا بساعة الجيب ذات المجدول الصوفي.

أما مهمته الثانية فهي الحرص على تركيب الرزة التي يجيد وضعها فوق الرأس.

- أنتَ يا هبطي (ثم قطع كلامه لفترة قبل أن يواصل) اسأل معي مول الوقت، الذي قال بأنه كان يشتغل بقصبة السلطان بمراكش، ما فائدة هذا الزمن في حياتنا. ماذا لو نحيا بدون وقت؟ لو يكون لنا الزمن دون مكان؟ لكن زمن من هذا؟

خرجوا فلم يبق غير الهبطي والقائد والهداوي... ثم توجهوا بدورهم نحو العراصي للترويح عن علي وقد بادرهما بحديث آخر:

- مناجل من حديد، وسنابل من جلودنا وعرقنا. لماذا المناجل دائرية، هكذا تأكل نفسها، رأسها يحلم طوال ثلاثة فصول من العطالة أن يأكل الذيل؟

انفجر الهبطي يضحك بقوة، وتلاه الهداوي دون أن يعرف عمَّ، ثم القائد الذي استعاد لحظتها مرحه.

- لماذا تفكر هكذا يا علي. (قال الهبطي والضحك يغالبه).

- الموت، الزمن، الشاوية، الاصفرار، المناجل، الشد والرزة وكل شيء (رد القائد).

- انظر واعتبر من الهداوي إنه لا يفكر إلا في السبسي والركيلة، ويتمنى أن يقضي آخر أعوامه خادما ملبوسا وسط توابيت أولياء البهالة، لا شيء يقضُّ مضجعه، كما كنت ستفكر - لو لم تصبح قائدا - سوى تخيُّل الدوم والغنم والغابة المطر.

إن هذا الهداوي الذي نراه في كل وقت أمامنا هو عبرة نعتبر بها ونرى فيه أننا لن نطول كل أحلامنا التي نتقاسمها أو ننفرد بها في صدورنا، إننا نبحث عن شاعر يؤرخ لنا فإذا بالشاعر يبحث عمن يضمن له الحد الأدنى من الحياة والتأمل، أليست هذه ملهاة نتسلى بها؟

- تعال إذن (قال القائد وقد أغبطه أن يبسط الحديث عن الهداوي الذي بدأ يحملق داهشا بعدما ألجمَ قناة فهمه) تعال إذن نصارح الملهاة بما ليس على

البال، تهيأ كيْ نكتب رسالة إلى قائد دكالة، يحملها الهداوي، دون أن يعرف أننا كتبنا فيها «وصوله بحصوله»، وفي الطريق سيفتحها، ولأنه لا يقرأ، فإن الجملة المدونة ستستغفل توقيعي الذي جعلته حارسا عليها - وكما هي عادة الجُمل دائما، ستخدعه مغرية إياه بأنها تقول «بدكالة ستصبح سلطانا» هكذا: الكلمات دوما تقود نحو الموت أو الملك.

أو تعال ندَّعي أمامه بأن أباه كان سلطانا وقتلناه، أنا وأنت (يلتفت مخاطبا الهداوي المشدوه) خذ بثأرك منا ومن قبائل المزامزة، ولا تنسَ جملة السر التي ستخدعك دائما وأن تقول «نريد مُلكا أو نموت فنهلكا (ينهض من مكانه بسرعة وبصوت منفعل) إنها الحرب قد ابتدأت، هِيتَ لكم أيها الشعراء جحيمكم شاويتنا، ودمكم من غبار حروبنا، (يضحك مع الهبطي أمام اندهاش مستمر للهداوي) سأقول لك النهاية يا هداوي... سنلبسك قفطان ريمة: كفنك الهادم لروحك الأخيرة بعدما سنلبس نحن قفاطين المنفى.

تستمر ليالي الحكي في الشهور الأخرى، وتتعدى سهرات لهيب الذات بكل أشواقها وهبَلها، حيث اشتعل الشيخ الهبطي بالشرب فصرخ وهو نصف عار دافئ بزمنه الداخلي وطقوس الجهات:

- «أنت يا عليوات السويرح، قائد عظيم لن يجود الزمان بمثلك مرة ثانية. لقد ذهب حمزة البهلوان وسيدنا علي وسيدنا سيف وعنترة. أنت خاتمهم آعليوات ولد باخويا»

ثم يضحكان، فينهض الهبطي ليرقص رقصة الذئب العجوز، وهو ثمل بعنفه.

- «أنت آبويا هبّوط، فقيه لم يجُد بك الزمان يا مفتي الوطن والسلطان. وغدا ستكون مفتيا للفرنسيس والبرتقيز».

يستمر لهيب الانبساط في صعود يتسابق مع زحف الفجر العاري من

ملابسه، والذي قد يدق نواقيسه المواتية لرقصات الرحالية وبناتها المشتعلات بالشبق.

- «إني أهيئ كُناشا أقيدُ فيه سيرتك الكريمة حتى يضعك التاريخ في مصاف العظام...»

لم ينتبه القائد إلى كلام الفقيه لأنه كان منشغلا بالنظر إلى الهداوي الذي سقط مبكرا من فرط تدخينه وشربه، بعدما كان يراقص الشيخات ويغني معهن من زجله وآهاتهن المبحوحة.

ركله برجله، فانتبه الهداوي الذي كان بشعر متهدل ولحية طويلة بطول قامته المجسمة في حجم السبسي، قام مسرعا ينتظر الأمر، فخاطبه الهبطي: «الآن ستقول في القائد العظيم قصيدة مدحية، وإن عجزت قطعنا لسانك بسيف العلوة المسلول». تلعثم الهداوي. صحا وقد توقف الطرب واتكأ الفقيه يحمل الريشة والدواة على بطن فتاة تمددت على الأرض متهيئا للتدوين.

تلعثم الهداوي وقال:

تهوى المشارق أن تكون شاوية ... لتنال من عطائه كل منال
أوَ لمْ يعم بجوده جاهها ... لا فرق بين جنوبها وشمال
أوَ لمْ يسر ركبانها بمحاسن ... ضاءت لها سرج بجنح ليال
أو ليس أحيا سنة العُمرين في ... زمن إلى بدع الهوى ميال

ثم يختم وقد زال عنه التلعثم:

ولي الفخارُ بأن نسجت مديحكم ... حُللا تجد وكل شيء بال
لكأنما طبعي شريف حينما ... لا يهتدي لسوى مديح الال

صرخَ القائد وهو لا يكاد يوقف الضحك الذي صدر منه أثناء سماعه للبيت الأخير «ما أكذبك يا هداوي» من أين نحلت هذه القصيدة أيها المُحور، كان

عليك أن تعمل في سكة النقود المزيفة»!.

ألا تكتب عن الجَمَل والحلاسة والتليس، عن المط والنادر، عن جدي الذي حمل السريجة من على فرسه ووضعها على ظهر عدوه ثم ركب عليه ولما تعب ألبسه الكفدية وأدخله إلى الدرسة.

***

مازال الطاهر المزمزي مصمما في معارضته للعنف الذي يطفو من حين لآخر، فينشر حركة رعب بجهات معينة من الشاوية. ورغم أنه ارتضى. مداريا شعوره، إقدام علي الشاوي على تقليم أظافر الملاكين فإنه بقي منتقدا في العلن عيوب القائد وحاشيته. فلم يسلم الشيخ الهبطي بدوره. والذي قاء وكتبَ مراسلة رسمية إلى أخوال المزمزي بدكالة يذكرهم فيها. بعد التحية والسلام: «إن لكم عرقا اسمه الطاهر المزمزي يشوش على السيادة السلطانية بالشاوية، ونحن نحترمه ونغطي عليه لاحترامنا الكبير لكم. ولكننا نخشى أن يصل خبره إلى مولانا السلطان. فلا نقدر على فعل شيء، ولكم واسع الحكمة في ردعه».

وصلت الرسالة بالهدية، فجاء الجواب حاسما في رسالة خاصة سيقرأها الهبطي على الطاهر المزمزي، كما سيخبره حامل الرسالة بأخرى شفوية يقول له إذا لم يزمَّ شفتيه فدمه مباح.

رغم كل ذلك، بقيَ الطاهر شاهرا انتقاداته في القائد والهبطي، وبشكل خاص في المنصري، وكذلك في أخواله دون خوف أو تراجع.

ماتَ الكسيح والد المزمزية، ونضج أخوها أحمد الصغير فنصبه القايد شيخا رغم صغر سنه على امزاب والمزامزة دون أن يعرف أحد بنسبه، فيما نُقل الشيخ الذي كان إلى مشيخة أولاد بوزيري مكان الشيخة زهيرو بعدما ماتت بمرض الجذري، ولم ينس أن يكلف عمر بن دحو السعيدي الذراع الأيمن

للشيخ احمد الصغير من أجل مساعدته على تسيير بعض الأمور الصغرى، أما ما استعصى عليهما فإن القائد والشيخ الهبطي قد أمرا أحمد بأن يعود لمشاورتهما في كل مسألة عصية حتى يشتد عوده.

قال الشيخ الهبطي في كناش زمن الشاوية:

كانوا أطفالا يلعبون في فضاء العلوة على جناح أرضها النائية التي كان حجاج قد اختارها وسوَّاها بكرامته.

فجأة، يسقط أحد الأطفال ميتا من جراء ضربة حجر باغته بها طفل آخر، فضجت الحقول والخيام، وفرَّ الطفل (القاتل صدفة) إلى خيمتهم، لكن أبويه، من شدة ذعرهما من والد القتيل الذي كان متشددا، فإنهما دفعا بابنهما إلى قبة سيدي أبو الخلف، الرجل الطيب الصالح الزاهد، والذي يحترمه الجميع فقيها وعالما، فهو السلطة الدينية، يعيش لوحده مع طفلة تبناها بعدما كان قد وَجَدَها في فجر أحد ليالي الحصاد.

دخل الطفل ومن خلفه أبوه وأمه فذُعرت طفلة الرجل الصالح ذات السنوات التسع.

-نحن في عارك أسيدي بو الخلف، ولدنا أمانة عندك.

خرجا بعدما قصَّا عليه الخبر، ثم انتبه الشيخ فجأة إلى عاصفة يقودها والد القتيل، وخلفه زوجه، فصرخ - دون حشمة - في وجه الرجل الطيب أن يُخرج له الطفل القاتل ليقتله، قال له أبو الخلف: «- - إنه في حمايتي، ثم إنه لم يقتله عن عمد، وسنفديه بما شاء الله، غير الروح التي تطلبها جهلا.

كان والد القتيل يشتعل كلما ولولت زوجه، وعفَّرت وجهها بالتراب وقد أبدى تصلبا وهو يحمل عصا غليظة، متوعدا أنه سيهجم بنفسه لقتله إذا لم يسلمه إياه. لم يعد أمام الرجل الزاهد، بعدما استنفذ كل شيء - ولم يبق غير هجوم الرجل - إلا سهما أخيرا حينما خاطبه قائلا: «ها هي ابنتي خذها واقتلها بدلا من الطفل الذي هو تحت حمايتي». سكت

الرجل، فدخل أبو الخلف قبته، وحتى يضفي على كلامه كامل الصدق، أخذ الطفلة وهي مسبلة الجفنين، تقدم بها فسلم يدها للرجل كما يسلم سبيا ستنقد سيدي حجاج (طير العلوة) من سهم غدار. شكل خاطف للموت تجلى سريعا في ضربة عصا هوت بكل حقد أعمى على تلك الفتاة فانفجر الدم من رأسها وأنفها وفمها.

لحظة صمت مختنق لدقائق يتلوه نحيب بعيد، فقفزت الدموع من عيني سيدي أبو الخلف دون تبدل في قسماته.

-ها أنت ثأرتَ لابنك» ثم انحبس الكلام في حلقه، ونادى على الطفل من الداخل، سلمه لأبويه سليما بعدما شهد الجميع أن والد القتيل لن يتعرض للطفل أبدا.

يحمل ابنته القتيلة بين يديه ثم يمشي دون كلام أو ارتعاش، التفتَ حينما ابتعد فوجد بعض الناس يتبعونه من أجل مساعدته على دفنها، لكنه صاح فيهم أن ارجعوا، مواصلا السير إلى حين خروجه من سهول الشاوية، فدفن ابنته بإحدى المقابر المهجورة، ثم استمر يزحف جهة الجنوب، إلى أن حط رحاله في جبل بدمنات، بقي رابضا فيه لأربعة عشر عاما يتعبد، زاهدا، يأكل من ثمار الشجرات المتناثرة، ويشرب من عين ماء نابعة بين سدرتي نبق.

راعي الأغنام في تلك الجهة، اكتشف أن جديا يغيب في ساعة الضحى باستمرار ثم يعود وقد تبللت لحيته، تكرر الأمر لمرات وحينما تقفى أثره، أدهشه ما رأى، رجلا طالت لحيته وشعر رأسه وأظافره، متوسط دقيق العظم، بوجه وضاء يشع منه نور فاضح، ويلبس رداء من الدوم نسجه لنفسه بعدما تقطعت ثيابه التي جاء بها من الشاوية.

وصل الخبر، فقامت الناس بالذبائح، وصارت لسيدي أبو الخلف قبة في نفس الجبل بعدما اتضحت لأهل دمنات كراماته. هكذا فقدت الشاوية أحد سواريها العظام، نظرا لتهور طائش لم يحسن ربط غضبه

وإحكام عقله، وظل الشيخ أبو الخلف في جبله غاضبا يمشي في كل الجهات دون أن يلتفت إلى جهة الشاوية.

فلم يجرؤ أحد قط على سؤاله. وعانت امزاب، منذ السنة التي غادرها الرجل الشريف، من جفاف لسبع سنوات، لم تسقط بعدها الأمطار إلا حينما مات الرجل والد القتيل، والله أعلم في كل ما نسمع وما نحكي.

استمرت الحياة تسير بعقل القايد علي والفقيه الهبطي، ووحده المنصري الذي كان لا ينام أبدا، يهيئ التقارير ويحرص على تدوين التفاصيل بناء على تقارير « وَاجْرادة مالحة فينْ كنتِ سارحة، واشْ شفت واش سمعت».

***

تقرير من المنصري مرفوع إلى السيد القايد علي، رقم 1779/44 م:

«بعد تقديم كل فروض الطاعة والولاء لسيدي القايد علي الشاوي أعزكم اللّه، أخبركم بأننا قطعنا دابر أولئك الأجلاف اللي خربوا وهرسوا وكالوا ديال بنادم، واحرقوا الزروعات، وقتلوا البهايم، وان رؤوسهم هي في الطريق لتعلق على باب قصبتنا السعيدة.

بصمة المنصري المسمار:

توسعت معارف المسمار. وبات الكثير يعتقد أن القايد يصدر أوامره وأحكامه وتعييناته بناء على ملاحظاته. فهو الذي يربط بأصابعه كل خيوط الشبكات المُنيخة على السهول.

سلسلة تتمدد، والقايد راض عن أعمال المنصري، وصية واحدة يكررها على مسامعه من حين لآخر: «ابتعد عن رأس الطاهر المزمزي»، ولكنه كان يفعل ما يشاء في كثير من الأشياء باسم القايد الذي لم تعد يقظته صارمة

مثلما كانت في السنوات الأولى من حكمه، فهو الآن يلتفت إلى إنجاز مدرسة للتدريس، قريبة من القصبة.. يدخلها، دون تمييز، كل من رغِب في التعلم بعد أن يكون قد حفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية والشروحات.

كان الشيخ الهبطي حريصا على هذا الإنجاز، فاستقدم فقيها من سيدي حجاج اشتهر بالمكي المزابي، وثلاثة فقهاء آخرين من ركراكة وسوس والمذاكرة، وقد تحدد برنامج الدراسة في أربع سنوات، أما السنتان الأولتان ففيهما تتم قراءة القرآن والقراءات السبع والشروح والألفية، في حين أن برنامج السنتين، الثالثة والرابعة، خاص بدراسة الشعر الجاهلي وشروحه، وضمنه شعر الهداوي في مدح القايد والشاوية، بالإضافة إلى الاستئناس بكناش زمن الشاوية الذي كتبه وجمع حكاياته الشيخ الهبطي، كما تم أيضا الاعتناء بفتح أعداد أخرى من المسيد، ومدارس صغرى في كل الجهات عبر دورية خاصة موجهة إلى الشيوخ، وأخرى إلى المقدمين، كما نادى البراح بصوته في أهل الشاوية.

صاح البراح:

«يا أهل الشاوية العظمى، سيد القايد الحاكم - بأمر من سلطان البلاد - يقول لكم: أدخلوا أولادكم إلى المسيد والجوامع والمدارس.... واللي كان منهم فاهم أرسلوه للقصبة عند سيد القايد».

كان القايد والهبطي قد اتفقا على إغراء الناس بإدخال أولادهم إلى المسيد عن طريق التخفيف من المكوس، ثم إن كل ولد نبيه يتم استقدامه إلى القصبة للدراسة وتُخصص له مصاريف خاصة، يتكفل بها علي الشاوي، فالتعلم، يقول القائد للهبطي، هو سلاحنا للقضاء على مسحة الظلام، وإذا كنا نحبُّ هذه الأرض، فإن الجهل هو عدونا، ونحن لا نريد أن تكون الزوايا مدارس لنا، ما أبهى أن يكون الجيل القادم لزمن الشاوية متعلما فنرسله إلى بلاد العجم والشرق ليعود عالما ويساهم في بناء شاويتنا.

خطوة جديدة لسبيل جديد، فالسلطة المركزية لا تستطيع اليوم أن تحمي

إلا نفسها، فكر الشاوي في حماية الشاوية بعدما نجحت نسبيا. فكرة التعلم، والمدارس التي تطوع لها فقهاء أعطيت لهم امتيازات لم يحلم بها قط أي فقيه في تلك السهول، حتى إن فقهاء من الجنوب استأذنوا الشيخ الهبطي في التدريس، فرحب بهم أيما ترحيب وكان يقول لهم دائما جملته الشهيرة التي أشعت في كل الجنوب:

- «نحن طلبة نحب أن نتعلم على أيديكم المباركة يا علماءنا الأجلاء».

لم تبخل القصبة على الوافدين أو الفقهاء المحليين بأي شيء. فتم توزيعهم، وقد أمر القائد المنصري بألا يتدخل في شؤون هؤلاء.

الطاهر بن علي الشاوي بدوره يحضر الحصص المدرسية، دون أن يكشف عن هويته، قبل ذلك كان القائد، بنفسه، قد بدأ يسهر على تعليم ابنه وتوجيهه (كأنه، وهو يقف أمام تلميذه، يتمنى بداخله أن يصبح فقيها). وحين تنتهي حصصه يأتي دور الشيخ الهبطي الذي كان يحكي للطاهر حكايات الشاوية، ويخلطها بحكايات أخرى كثيرة، وفي تلك الشهور وضعت المزمزية وليدها الثالث، منانة، طفلة جميلة في صراخها وزوغان نظراتها.

كانت نشوته بهذا العمل بداية للتفكير في تسليح الشاوية وتطوير نظامها الدفاعي والأمني الداخلي أمام احتمالات أية أطماع خارجية أو داخلية، وأمامه تقرير ضمن مجموعة من التقارير حول يهوديين يقطنان بالملاح الذي بُني على الجانب الأيمن من القصبة، فيهم أطباء وعطارون ونسّاخون وباعة للبيض والزيت. لكن التقرير يقول إن منهم اثنين لم يبلغا الأربعين من عمرهما: دافيد شقرون وبنعيس شمعون. يسافران كثيرا خارج المغرب وقد لوحظ معهما شيء يخرج منه النار فيقتل. استعملاه مرة في الجزء الأخير من الغابة قرب فُمْ الدّير.

لم يشك القائد لحظة أنهما يتاجران في السلاح المتطور، الموجود عند الفرنساويين والإنجليز، ويبيعانه لجهات في الوطن، لهذا دبّر الأمر جيدا مع

المنصري والهبطي، وأحمد المزمزي، فأرسل من هاجمهما فجرا، ببيتيهما. وبالسرعة ذاتها وهما أمام لجنة الأربعة، داخل القصبة تتالت عليهما الأسئلة فاعترفا واتفقا أن يجلبا للشاوية بعض القنابل والمكاحل المتوسطة والطويلة والبارود.

لن ينس القايد أن يقول لهما أنه تكلف بحراسة اليهود، والحرص على مساعدتهم... والحقيقة أنه كان يريد أن يفهما من كلامه هذا أن ملاح اليهود بما فيه عائلتا شمعون ودافيد، هو رهينة عند القائد إذا ما فكرا في نكث الاتفاق والوعود.

لم يكن من مانع أمامهما، لأن الأمر فيه تجارة لهما، ولكنهما لم يقترحا الأمر على القائد منذ البداية بخصوص هذا السلاح العجيب، لأنهما خشيا من فتنة تصيب الشاوية فتشتعل النار في الجحيم ويكون اليهود هم أول الضحايا.

يقول بنعيس شمعون للقائد:

- لقد جئنا إلى الشاوية وبنينا ملاحنا إلى جانب قصبتكم، لأنكم القائد الوحيد بهذا الوطن - وبعدما طرد أجدادنا من الأندلس - الذي فيه تسامح ديني، ويؤمن بالتعايش، وليست بالشاوية زوايا تفتعل تلك العصبية الدينية...

ثم أفاض أمامه في شرح كيف أن الزوايا وتطرفها الذي ينمو ويتقوى، لا يترعرع إلا حينما تكون السلطة المدنية والدنيوية ضعيفة ومتخلفة، غير متفتحة.

من تأملات علي الشاوي أثناء خلوته:

«إن الشاوية التي نحبها جميعا هي، دائما، نفسها، المرأة الجميلة التي كانت. فينا من يحبها لنفسه، وفينا من يعشقها للآخرين. ولكنها تعرف جيدا من سيلبس القميص القمحي الذي تنسجه.

لا يمكن أن يكون إلا هذا العدل وبهذه الطريقة، لأن الجميع قد تعوّد

ولقرون طويلة، أن يحيا في عهود السيبة، ثم إن زمن الشاوية هو زمن الموت والقتل والفوضى ولا يمكنني بين عيشة وضحاها أن أشطب على كل هذا، الآن وبعجالة، هناك دائما، رغم ما فعلت، شبكة خفية تغرق القصبة بالهدايا الزائفة من أجل أن يصبح القائد لهم، ويكره الفلاحين.

والشاوية بتاريخها الطويل وقوانينها في الحرْكات، وأنا أغرز كل مَخَايطي الحديدية فيهم بالعنف وقطع الرؤوس واستخلاص المكوس وتوزيع آلاف الحقول على الفلاحين بعد سحبها من بعضهم... أبدو بطلا قادرا على حكم السهول والجبال والقطيع والراعي.

إن لحظات إثبات العدل بمقاييس لدى الإنسان في هذه الأرض المباركة هي لحظات ضعف لا قوة.

***

احتار الشاوي كثيرا حتى كاد يفقد أعصابه، وتمنى لو لم يكن قائدا، لحظتها أحس بتلك الارتعاشة العاشقة التي سرت في الجزء الأعلى من رأسه وفي قفصه الصدري والجزء الأسفل من ظهره، وذابت قسمات وجهه الحزينة في سهو شارد أغرقته الرغبة الملتبسة في شرايين من كبريت.

كان عليه أن يبتهج وأن يفخر، وتحمل الشاوية أعلامها البيضاء والحمراء لتحتفل به على الثقة التي أودعها فيه السلطان، حينما قال له في رسالة عاجلة أن يتهيأ لأن السلطان المؤيد قد عينه قنصلا بفرنسا.

لن أترك الشاوية قائدا كنتُ فيها أو خمَّاسا، حيا و ميتا. هكذا حسم الأمر للشيخ الهبطي وهو يلومه - كما يلوم الطفل أمه - على ما قاله للسلطان حينما كان يذهب في الحفلات والمناسبات.

كان الهبطي يقول للسلطان:

- ليس هناك يا مولاي، بعدك طبعا، أعظم حاكم في هذا المعمور، من

خدامك الأوفياء غير علي الشاوي، سليل الأبطال والشرفاء.

علي يا مولاي، هو روحك التي تحرس عباد الله الذين هم في أعناقنا أمانة، سيحاسبنا الله تعالى عليها يوم القيامة، ويسألنا هل أطعتم الله والسلطان، وهل طوعتم الشعب للسلطان؟ .

في الليلة الموالية، استدعى القائد الشيوخ الأربعة، وبحضور الهبطي والمنصري وخمسة من الفقهاء تلا عليهم رسالة فاس وكان حزينا، ثم تحدث الهبطي وقال للجميع: «أيها السادة الأجلاء، إن مهمة السفارة تكليف وتشريف، ولكن مولانا القائد يرى أن سفارته في الشاوية خير له من أي إقليم داخلي أو خارجي آخر، وقد اجتمعنا اليوم لنجد حلا لهذه المسألة».

تناقشوا ثم وصلوا إلى حل عسى أن يوافق عليه السلطان، فقد ترأس الشيخ الهبطي وفدا مكونا من الشيوخ والفقهاء وبعض الأعيان والمقدمين، وبهدايا كثيرة ومتنوعة اتجه بها إلى فاس فقابل الهبطي السلطان، وقدم له ساسة الشاوية وعلماءها وأعيانها وهداياها، يتوسلون أن يترك لهم علي الشاوي قائدا، ويفخرون أن ينتخب السلطان منهم فردا للسفارة، ثم اقترحوا عليه الشيخ احمد المزمزي (أخو المزمزية) شيخ امزاب والمزامزة فقدمه الهبطي على أنه عالم علامة وحافظ لكتاب الله وله دراية كبيرة بالتفاوض والحوار والإقناع والسهر على مصالح السلطان والوطن.

كانت الهدايا كافية، وكذلك كلمات الشيخ الهبطي الذي يحسن الديباجة والعرض وجودة الخاتمة فيمسك بمجامع القلوب، وهو يرسم كل شيء أمام مستمعيه. فتمت تسوية المشكل، ووافق السلطان على الشيخ أحمد دون أن يعرف أنه صهر للقائد، فدونوا اسمه في الظهير باللغتين على أن يتهيأ للسفر خلال شهر، تعلم فيه أشغاله بالتحديد، وكيفية التعامل مع السلطة المركزية. واتضح له أيضا أنه سيكون سفيرا لجمع ما يقال عن الوطن والسلطان هناك، وأيضا تسهيل الترتيبات لتجار الثوب والجلود والملح والسكر، وربط العلاقات

مع السفراء الآخرين بفرنسا والمجاملات مع الملك الفرنساوي، وأخيرا اقتناء كل جديد في الاختراع والطب والملابس والعطور، وبعث كل ذلك إلى فاس.

هكذا فهم الشيخ أحمد المزمزي السفارة، وأما اللحظات التي سافر فيها الوفد من القصبة إلى فاس، فقد بقيَ القائد علي فيها، مثل الطائر المذبوح، نصفَ ذبحة، جهم، بداخله رجات تجعله يشير بيديه كأنما يحادث شخصا لا مرئيا يخرج من الباب الخلفي للقصبة نحو وادي بوموسى والعراصي المهجورة. هناك، يتمشى قليلا قبل أن يعود فيرتمي في حضن المزمزية، ويتحدث مع الطاهر ملاعبا هتهوت ومنانة قبل أن يفحص في بلاهة شاردة أوراقه المربوطة في جلد مجفف، وهي تضم ظهير تعيينه ورسائل السلطان وبعض الأوراق الخاصة، وأيضا أوراقه التي كان يُدَوّن فيها تأملاته وكناشا بخط يد الفقيه الهبطي حول الشاوية.

ينتبه لكنانيش الطاهر ابنه، فيأخذ المصحف الذي أهداه إياه الحبر اليهودي بالملاح، تقربا منه، وقال له بأنه قد عثر عليه مخطوطا بأرض الكنانة وهو بخط فقيه مغربي من ورزازات. يكتشف خطوط ابنه الطاهر الجميلة، ورسوما رسمها لوجوه مختلفة، صفعه تطابقها مع وجهه ووجوه الهبطي وأمه وهتهوت، وهو يلاعب منانة وكلبهم الصغير، ووجوه الفقهاء وبعض الأطفال.

إنه كمن ينتظر امتحانا، وحينما عاد الهبطي صرخ فرحا ونادى على الهداوي أن يكتب قصيدة مدحية في الخصال الزكية للشيخ الهبطي، علامة زمانه ونابغة عصره في المغرب الأقصى كله، ثم جلس معه يملي عليه رسالة إلى السلطان.

رسالة القائد إلى السلطان:

«من خديمكم على أرض الشاوية المقدسة إلى جناب السلطان الأعظم سليل العرق الأشم، والجد الأكرم.

وبعد كل فروض الطاعة والولاء، نشكركم على ثقتكم فينا. وفي أبناء الشاوية. فإننا منذ وصولنا إلى حكم الشاوية ونحن ننعم على رعايانا الذين رأينا فيهم كل الإخلاص للسدة العالية.

كما أننا نظمنا جميع المكوس مثلما قطعنا دابر السيبة فكان التأديب ترياقا لقطع دابرهم، ونارا لحسم عرق بلائهم. بعدما كانوا قد عاثوا وأضروا بالساكنة في حياتهم وأموالهم وأعراضهم.

وحتى الأمس القريب، كانت جماعة من الخارجين عن قوانيننا هاربة فبعثنا وراءها خدامنا من الجراد والسْبَايْسِيَا فاقتسموهم في أسرع من لحس الكلب لأنفه (حاشاك) وتوزعوهم شذر مذر، وصيروهم عبرة لمن اعتبر.

دامت لكم الأفراح. من خديمكم البار: القائد بأمركم على الشاوية.

بصمة علي الشاوي

في قصبتنا المباركة بتاريخ 1784

السعادة التي تغمر القائد جعلته يستقدم في ليل متأخر شمعون بنعيس ويسأله عن السلاح العجيب، فيجيبه بأنه سيأتيه ببندقية ومسدس وعشرات من القنابل.

- ولماذا ليست المئات والآلاف، يا بنيس، من البنادق والقنابل؟

- سيدي القائد، إن المصنع الذي نجلب منه السلاح، يوزع على مجموعة كبيرة من الدول، وسأسجل رقم الكمية ولكنها لن تكون جاهزة إلا بعد مدة طويلة، أما المسدس والبندقية وبضعة من القنابل فهي هدية مني إليك.

كان شمعون يجد الأعذار المنطقية كي لا يأتي بالسلاح، وحتى لا يرفض مباشرة فهو يبيع مع دفيد شقرون للزوايا والعصابات.

حماس القائد لم يعد لاهبا نحو السلاح الذي يتطلب أموالا ضائعة. ولكنه استقدم شمعون من أجل أن يطلب منه صك عملة من النيكل نكرش والغرنت والرباعية، وأعدادا خاصة من العملة ذاتها من خالص الذهب 24 قيراط، ثم

أملى عليه التفاصيل حول عملة ذات وجه به صورة القائد علي الشاوي وتاريخ الإصدار باسمه. أما الوجه الثاني للعملة فيكتب عليه اسم الشاوية المقدسة محاطا بسنبلتين.

وسيتداول أهل الشاوية بعد ستة أشهر العملة التي ستختلط بالعملة الموجودة دون أن ينتبه إليها أحد، لأن شمعون كان قد استخرج قطعا نقدية محدودة، ولأن الفلاحين في جهات كثيرة يرفضون التعامل بالنقود ومازالوا يحبذون المقايضة، ونوع آخر لم يكن يعرف وجه السلطان أو وجه القايد، فيما اعتقد البعض أن القايد أصبح هو السلطان.

xxx

دورية تنظيمية رقم 31 من السنة الجارية 1785 م

«من قائد الشاوية إلى كل الشيوخ ومنهم إلى المقدمين:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد النبي الكريم وعلى آله وصحبه ذوي المجد الفخيم.

الحمد لله الذي أنعم علينا بالكمال والمال، وتكرم علينا بأحسن حكم في أسوأ الأحوال، نحمده وله الحمد في الأولى والآخرة على نعمه الكثار، وسبحانه الذي علمنا سرائر الحرف المكنون، وأضاء عقولنا بأنواره التي لا حدود لها. خدامنا في جهات الشاوية الأربع:

تتميما للرسائل المكتوبة أو الشفاهية التي بعثنا بها إليكم، على التوالي في الفترة الأخيرة، نُخبركم بأن الشاوية أمانة في عنقنا، وكنزا في زمننا، الحرص، الحرص عليها.

وبهذا، فإننا نأمركم ببذل كل الجهود من أجل الحفاظ على الأمن ومعرفة كل صغيرة وكبيرة، وادفعوا الأبناء للتعلم، فالجهل عدونا، ولابد من إخبارنا دوما دون تقاعس أو تأخير، بكل شيء مما يقع، وكلما تقاعستم عن مهمتكم هاته فسُد العمل وخاب الأمل فلم يبق غير الهلاك والموت المحقق.

هذا قولي، فإن عملتم به، فالحمد لله، وإن تركتموه فالله أكبر.

بصمة: القائد علي الشاوي

كأنه يأتي أول مرة قائدا، بعدما تخلص من صفة القونصو، فتذكر اليوم الذي جاء فيه إلى الشاوية، وخلال شهر كامل كان يشك أنه سيفيق صباحا فيجد نفسه حيا.

من أجل هذا بعث بدورية جديدة للشيوخ والمقدمين، أما مشيخة المزامزة وامزاب فقد أصبحت بدون شيخ بعدما سافر الشيخ أحمد المزمزي سفيرا للوطن بفرنسا (سيقول لهم الشاوي بأن الشيخ أحمد قونصو الشاوية بأوربة كلها)، احتار في من يكون شيخا، فاستدعى الطاهر المزمزي وعرض عليه الأمر لكنه رفض، ثم حاول معه كثيرا، وقال له: «هذه فرصتك حتى تختبر نفسك في السلطة، وتنتقد من الداخل، بدل أن تبقى خارجها، ولكنه رفض مجددا وبشدة، فترك الأمر للشيخ الهبطي والمنصري حيث اختارا المقدم دحو السعيدي شيخا على امزاب والمزامزة نظرا لما أبداه من حزم واستقامة، ودقة في التقارير التي كان يبعثها للشيخ القونصو، والذي كان قد اقترحه على الفقيه وهما بفاس، من أجل تعويضه في منصبه.

في السنة التي سافر فيها أحمد كان الطاهر الشاوي قد بلغ الحادية عشر من عمره يتجاوز هتهوت بخمس سنوات، ومنانة بثمان سنوات.

تعلم الشيء الكثير مثلما تعلم ألا يشكف عن نسبه من القائد، يخرج خارج القصبة يتجول ويلعب، ثم يمر وسط الملاح فيراقب كل شيء بإمعان ويستمع إلى صوت صلاتهم المنبعث من بيت واسع. تعلم أشياء كثيرة من خروجه، وكانت المزمزية تحرص ألا يكتشف أحد بنوته للقائد، وتتشوق كي تسمع ما يأتي به من أخبار، وهو لا يتأخر في ذلك حتى أنه بات شديد الملاحظة والتركيز من أجل أن يحكي لأمه التفاصيل، فيروي لها عما يقولونه في والده، وعن القنبلة التي انفجرت في العرصة فخرجت فلول اللصوص المختبأة كالجراد الدائخ، ثم يحدثها عن سلوك اليهود والسخينة التي يأكلونها يوم السبت.

لم يفت المزمزية أن تطلب من علي الإتيان لها بالسخينة، فلم يتأخر

وجاء بها مهيأة من قمح طري مفسوخ تم طهيه مع التوابل والشحم واللحم وزيت الزيتون، من عند عائلة يهودية غنية.

كانت كلما سمعت بشيء اشتهته نفسها، تقوله لعلي الذي يلبي على الفور، وهو ضاحك، لأنه يعرف أن طلبها قد سمعت به ضمن آخر تقرير للطاهر.

أما هتهوت، ورغم صغر سنه، فقد حفظ أحزاب القرآن وكان شغوفا بشكل مُلفت بكناش الفقيه الهبطي، بحكاياته التي يحكيها للمزمزية ويناقشها مع أبيه وهو يلاعبه.

منانة، الطفلة الصغيرة التي ترقص كلما رأت والدها، وتشد الفقيه من لحيته، شغوفة بملاعبة أسراب النمل، والخروج من الباب الخلفي إلى ساحة خضراء تقود نحو الوادي، لا تعرف شيئا، ولكن علي الشاوي يعرف أنه سيحب منانة كما لو كانت أمه حية، فقد حكى له والد المزمزية قبل وفاته أخبارا كثيرة أخرى عن منانة وزوجها علال وأولادهما الذين قتلوا فيما عدا الوليد المفقود عبد الله.

«هو أنا وأمي منانة». يقول مؤكدا لنفسه ثم يحمل في ولع ابنته الصغيرة وهو يناجيها:

«شَبْ شَبِّينْ، ذْرَاعْ وشَبرين، الشحم والزين».

«أمي منانة، والغاديا نعسانة، والراكبة ناقة مولانا، آش كلت واش شربت غير حليب المزمزية وخبز المزمزية في قصبة بويا الشاوي وخالي الهبطي وعمي الهداوي».

***

أربع سنوات مرت على غياب القونصو الشيخ أحمد المزمزي، فلم يبعث إلا برسائل كانت تصل إلى القائد، يحكي له فيها عن زمن باريس... يقرأ للمزمزية الرسالة بشوق والطاهر بدوره يصغي في تأمل إلى رسالة خاله دون

أن ينبس بشيء.

- سأذهب إليه في الربيع القادم من سنة 1789، فالأمور هادئة و نسبة ثابت.

يقول القائد لمن حوله من عائلته والشيخ الهبطي، ثم يستطرد:

- ومن يدري ربما جئت من هناك سلطانا وأنا الآن في الأربعين من عمري وستة شهور، كما جئت من فاس قائدا قبل عشرين عاما.

ضحكات متقطعة وخفيفة يعقبها صمت طويل والقائد يقلب في نفسه فكرة الرحيل، ويبرر أن من حقه الاستراحة لفترة من تعب تراكم كالغبار ولمدة قريبة من العقدين أو تزيد في حكم الشاوية.

شرع يتباحث مع الشيخ الهبطي، فقط من أجل الإعداد للسفر، فلم يقبل الفقيه، وقفزت الدموع من عينيه، لكنه أمام إصرار القائد.... اقتنع بأن يناقش معه تدابير الرحلة، واقتراح طريقة مشروعة مع إخبار السلطة.

اقترب موسم الحج، والسلطان لحظتها كان بمراكش، فسافر إليه الشيخ الهبطي وحيدا بالهدايا، ولما سأله عن سبب مجيئه، أخبره بأن القائد يستأذنك في الذهاب إلى بيت الله الحرام وعلى الفور وافق السلطان، على أن ينوب عنه الشيخ الهبطي وثلة من الثقات.

تمت المؤامرة، كما حبك خيوطها الشيخ، وابتدأ التفكير جيدا في كل شيء، فحتى المسمار لن يعلم إلا بذهاب القائد إلى الحج. أما أهل الشاوية فليس من الضروري أن يعرفوا شيئا، وإذا ما كثر السؤال والإلحاح فليس بُدّا من إخبارهم بأن القائد توجه نحو الحج مع أبناء السلطان.

أيمكن أن تضيع عواصف الشاوية في لحظة استراحة محاربها، وتسقط كل الأنجم التي رفعتها السواعد القمحية؟ إنه زمن الشاوية الملتهب الحارق العلقم بمرارة الشيح والشندكورة والمريوت.

السائب الرهيب الغادر والمغدور، الطاعن في المحبة والمطعون في الفتنة زمن الشاوية هو زمن العزلة والمنافي المربوطة بسلاسل الضيم والمفاجأة.

ليس أمام علي الشاوي غير القَدَر الذي سيَفُك عنه عزلته حتى يرتب شرايينه المتقاطعة مع رغباته المنفية، والرحلة هي بحث أليم عن زمن الشاوية

الآخر، القرنفلي الجميل.

هيأ كل شيء للسفر، وأحكم التنبيه والحرص على ذلك الباب المجهول الذي تسكنه المزمزية مع أبنائها. ثقته كبيرة في الشيخ الهبطي الذي سيستعين بالمنصري وبالعلماء المحيطين به، والأعوان الذين يشتغلون بداخل القصبة.

يتهيأ ابنه الطاهر الذي بلغ متم الخمسة عشر عاما من عمره للسفر معه. حصانان للركوب وبغل يحملان عليه المؤونة وبعض الألبسة، ولم ينس القائد أن يحمل المسدس والبندقية وقنبلتين وقطعا ذهبية باسمه وصورته.

الليلة الأولى ما أقساها على نفس الشيخ الهبطي وقد سَهِرَ الليل بطوله وهو يتحسس، لوحده، كناشه الذي لم يتممه بعد، بعدما أطلق عليه اسم الكناش الثاني في سيرة القائد علي الشاوي. فطفق ينظر إلى حروفه الأولى وقد طفح الدمع من عينيه دافئا.

تدوينات ملأى بتشطيبات وهوامش لسيرة القائد وأعماله خلال عقدين من زمن الشاوية. وتدوينات أخرى في ذاكرته لليالي التي سافرت بهما بين الرغبة الحرون، والإنشداد إلى خوف دائم، أشد سوادا من برنسه الأول.

- III -

قفاطين المنفى

قال الهداوي:

عَمَّرْ مْعَمَّرْ ماتْ
خَلَّى ثَلْثْ بْنَاتْ
وَحْدَا تَزْهَى
وَوَحْدَا تْبَاتْ
وَوَحْدَا تَمْشِي فِين بْغَاتْ.

دفعَ مع ابنه الطاهر الأيام نحو فرنسا التي كان قد رفضَ الذهاب إليها سفيرا، ها هو اليوم يشدُّ الرحال إليها سائحا يريد أن يتمتع ببعض الوقت، مع ابنه الذي يريد إمتاعه بما لم ينعم به هو، في طفولته الناعسة.

أشياء صغيرة كانت تعترضه في طريقه نحو إسبانيا، لكن مسدسه السحري، طلقة واحدة منه تكفي لترهيب قبيلة برمتها، لذلك فهو لا يلجأ أبدا لاستعمال القنبلة أو البندقية، وقد حرص على إتباع الطرق التي حكى له شمعون بنعيس اليهودي عنها، وأيضا أثناء استفساره لدافيد شقرون، فقد خرج من المغرب عن طريق مليلية الآهلة بالأندلسيين، وأهل الشمال، ودخل إلى الأندلس راكبا الباخرة التي نقلته من البحر إلى البر الإسباني، فالتفتَ الطاهر متأملا، وكان الفجرُ مازال متراخيا على ظهر الباخرة التي خلفاها تتمدد من تعبها على ساحل لونه يشبه الرماد، ثم أغضى ببصره واستهام أن يكون ذلك اللون هو نهايات تركها مع القائد، ورماد المراكب المحترقة، والشاوية بكل شساعتها هي ساحل من رماد، ذراته تتباطح في عناد، فتترك رنات موسيقية متشعبة في النسيان والانمحاء.

في الأندلس الإسبانية... الطبيعة، وذلك الإحساس الآخر في بلاد لا أحد يعرف لغتها، كان الشاوي يحكي للطاهر عن حياته التي لم يسمع بها من قبل... من سارح «ذبحت أيادي الإثم العائلة كلها فنجوت لأن أوراق الأشجار تساقطت وغطتني، ولم يفقه لي أحد حتى جاء باخويا فأخذني وترك تلك الأجساد المقتولة مرمية إلى أن قدم أهل الدوار خلسة ليدفنوهم».

هكذا من سارح يتيم إلى قائد عائلته هي كل أحياء وأموات الشاوية. كما روى أيضا بداية حبه للمزمزية... ولكنه كلما تعب من الحكي عن ذاته وزمنه عاد ليُلملم ما التقطته ذاكرته من حكايات الشيخ الهبطي عن أخبار زمن الشاوية.

الزمن تائه والفضاء مسافر في ربوة عالية بعد اليوم السادس لهما في

الديار الإسبانية، دير يقبع هناك مثل عش مهجور يقود إليه ممر ممدد كأفعى ممشوقة القوام، كان المساء كما لو أناخ بكلاكله على شعاع الضوء، واعتصر شيئا اسمه الغروب الجريح.

نزل القائد صاعدا الممر الجبلي نحو قمته المقدسة تلك، وبيده الرسن، يجر به خلفه الحصان الذي يركبه الطاهر، وحصانه والبغل المحمل بالمؤونة، بطيئا يصعد الممر، ولا أحد يمكن أن يخمن في الشيء الذي يفكر فيه القائد أو ابنه من جهة، أو الحصانان والبغل من جهة ثانية، ثم الصمت المعتصر من ريح حمراء من جهة أخيرة ربما!

دير من أحجار طالها لون رمادي، نبتت على جنباتها أعشاب برية قزمة، بداخله عجوز في حوالي السبعين من عمرها، لم يفهما كلامها الذي هو بالتأكيد لا يشبه كلام الأسبان الذين تحدثوا معهم من مليلية إلى الدير، ربما كانت برتغالية منفية بديرها، وها هي الآن تحرس الملائكة الذين عجزوا عن مواصلة مهامهم المقدسة، فاختاروا عرش تلك الأرض الجبلية بدل عرش السماء.

- أنا شاوي من بلد الشاوية العظيمة ذاهب إلى فرنسا عند صهري هناك ونريد أن نبيت عندك الليلة.

يعرف القائد أنها لم تفهم كلامهما كما لم يفهما كلامها، ولكنه أحس بارتعادتها حينما فرت بداخل الدير، تداري دموعها التي قفزت بدون زانة من فوق رموشها البيضاء الخفيفة، وتلك التجاعيد التي هي تورُّدات كانت على الخدين وقد صارا أحواضا صغيرة وقاحلة إلا من ذكريات مبعثرة وشحوب حزين بسط ظله الأصفر عليها.

دخلا وراءها، فاندهشا للمجسمات، وصورة السيد المسيح والسيدة البتول بتأملاتها الشامخة، صمت الكراسي ومنفى الدير في ذاته المعزولة.

التفتَ إلى ابنه ينظر إليه غارقا في سهو عميق، فاعتقد الطاهر أنه يحثه على دق الوتد للبهائم والإتيان بعشائهما، ولكن القائد عاد يتذكر تلك القبة التي

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

بناها في ربوة بالعلوة ودخلها مدة، زاهدا، ثم عاد يضحك من تصرفه ذاك.

ها هي ربوة العلوة البرتغالية وحارستها المكلومة في ذاكرتها.

أشارت للأب بالتوجه نحو غرفة سفلية قصيرة العلو، ثم جلست قبالة المجسمات على كرسي خشبي وسط ذلك الفراغ الثمل في شيخوخته، وكانت الشموع قد التمعت رقصات ضوئها.

وضع الطاهر للراهبة شيئا من اللحم المجفف والزمّيته، والخروب الجاف على حافة مائدة بدون قوائم، ثم ناما في كهفهما السفلي.

في الفجر حملا حوائجهما، ودعا الراهبة البرتغالية وديرها ثم اتجها نحو اختراق الحدود الفرنسية.

- بويا..

- آش آمولاي الطاهر..؟

- نعاسي جعلني أحلم برؤيا غريبة..

- .... (يشير عليه برأسه).

- شفت صورة تلك المرأة المرسومة كتنزل وتبوسني وتأمرني نرضع من حليبها، ثم نزل ذلك الرجل المصلوب، وطلب مني باش نْفُكو. وفَكّيتُو» .

وبدوره القائد يحكي لابنه رؤيا رأى فيها أنه قام فوجد تلك الراهبة هي المزمزية التي تحرس الشاوية بقلبها الكبير الذي لا يعرف للزمن حدودا، وقد فسر نفسه ذلك، بأنه سيموت قريبا ويترك المزمزية لزمنها، تحرس سلالته.

كيف تستطيع الأحلام أن تتسلل إلى النفس وتزهو أو تنتكس، ترسم الجمال أو تشطب عليه بكوابيسها... في غفلة عن العقل؟

كان الطاهر يتكلم، حينما انزوى عليّ يحدق في شاشة مخيلته التي مازالت تحتفظ بطراوة صورة ذلك الدير. رآه فرفع بصره إلى السماء، وتتالت أمامه صورة السور الأمامي للقصبة ووجهها.. بلون التراب الأحمر، هو خليط من حصى أحمر شديد التماسك، يمتد طولا على مسافة أربعين قدما، مقابل الثلاثين قدما في العلو، بينما اتسع سمك السور إلى قدم واحدة.

أبوابه الثلاثة، باب العبيد وباب وسط كبير للأسياد، وثالث للأقدار التي

قد تأتي في أي وقت.

مدخل الأسياد والقائد واسع وعالي يمكن للمحلة أن تمر منه دون ضيق، بابه ذو الدفتين الثقيلتين من عود خافت اللون، يفتح بأذرع عشرة رجال لكل دفة، وقد تم تزويقه، بدوائر نحاسية في حجم الكف، شكلت مربعات عمودية وأفقيه... ومع كل زمن من أزمنة النهار المقسومة بين الضحى والظهيرة والعصر وساعات الغروب الطويلة تتشكل ألوان خاصة من انعكاسات لون النحاس.

عشرون رجلا من العتاة، يحرسون البوابة بدفتيها من الداخل فيما يحرسها من خارجها خمسة عشر رجلا مدججا.

أما البوابتان الأخريتان، البوابة الموجودة على الشمال مغلقة على الدوام في انتظار أقدارها، في حين تبقى بوابة اليمين مفتوحة بحراسها أيضا.

أعلى السور الممدد، أماكن مسننة يقف بوسطها جنود الحراسة والمراقبة برماحهم وأقواسهم الفاغرة فاها بتوتر لسهام تترنح وسط جراب متدلية.

سور القصبة العالي وأسنانه الثلاثون ستمضغ ما شاءت من عواصف تصيب أو تخطئ، وليس المهم هو النتيجة بل مفاجأة الغيب.

المنصري وحده سيقول: «كل شاة تعلق من كراعها»... ووحده الذي سيعلق الرؤوس على أسنان السور المتساوية. كما سيعلقها بمداخل العراصي، الشاة من كراعها والشاوية من وبرها.

الهداوي من بائع سباسا إلى مطرب القصبة وشاعرها، في ليلة أحب أن يقول للقائد علي أنه حكيم حينما تنتفخ أوداجه من كثرة تدخين الكيف:

- أيها القائد أنا أقول:

«عمر معمر مات. خلى ثلث بنات. وحدا تزهى ووحدا تبات ووحدا تمشي فين بغات».

لم يتكلم بعدها لأنه كان يود من القائد أن يفك هذه الألغاز، لكن الحديث ساقهما نحو شؤون الأمة التي لا يجب أن تمشي فين بغات.

***

يشُقّان المنفى الثالث في مسيرة حياتهما ورحلتهما، وباريس بدورها طقس سيذوقان ملحه حينما تتم مقارنتها مع الجنوب وما يتركه في النفس من دهشة عميقة، تليها دهشة الجو المضطرب الذي استقبلاه بباريس: حالة من الاستنفار، ورجال حرس على أنواع بلباس في غاية التنظيم والتكوين، بعضهم يطوف على رجليه والبعض الآخر على أحصنة بسروجها تسير بنظام محسوب لا يخلخله إلا أولئك الرجال والأطفال والنساء والفقراء. من خلال ملابسهم المقطعة وملامحهم الغاضبة يحملون العصى والبنادق والحجارة. من زقاق ضيق تخرج مظاهره بصراخها اللامنقطع فتسمع أصوات رصاص أو قنبلة طائشة، ثم كلاما جماعيا متجانسا.

ربطا الحصانين والبغل، وحملا ما عز وخف من حوائجهما، ثم سارا تائهين وسط المدينة يسألان بعربية لم تغتسل بعد من إغراءاتها الخاصة.

- القونصو ديال المغرب، الشيخ احمد المزمزي الشاوي.

كان كلامهما أشبه بالهمس المهلوس وسط انفجارات صاخبة، وقليلون جدا من توقفوا لاسترجاع أنفاسهم، ثم تركوا السؤال هائما أكثر من تيه سائله والمسؤول عنه.

تاه الطاهر مع ابنه لأسبوعين كاملين وسط شوارع باريس الملتهبة بين مد الثورة الفرنسية وجزرها. في البداية كانا ينامان في الإسطبلات قبل أن يهتديا إلى غرفة بالطابق الثاني من فندق في ملكية عجوزين، وهو من طابقين وله واجهتان مشمستان فأدى ثمن أسبوعين مبيتا وأكلا مع التصبين، بقطعة ذهبية عليها صورته. أسالت لعاب العجوز، وقد لاحظ الطاهر أن الرجل زوجها ربما هو مجنون، لما لاحظه عليه وهو يكلم نفسه ورفعه لديه دون أن يشاركه أحد الحديث.

كان علي يخرج مع ابنه للتجوال والتنفيس عن كربة عقدين مع الزمن، وكلما تذكر صهره الشاوي المفقود، سأل عنه دون جدوى أو انتظار جواب، حتى نسيَ الأمر تماما مع حلول شهر كامل على تواجده هناك.

ابتدأ يفهم سر بعض الكلمات، رغم رطانتها، كما فقه أسرار باريس التي تفور بأحلامها، وهي تستفيق بالتدريج، والأحلام تتزاحم كتوائم آهلة بالمعرفة، فانخرط مع الطاهر - كأي معني بالنتيجة - يتابع الأحداث وسط المظاهرات على الأقدام وتارة حاملا ابنه فوق كتفيه، وخلال المساء والليل، فإنه كان يخرج ليستمع إلى الحلقات الكثيرة في الأزقة الضيقة المظلمة التي تبدو كالدهليز السري، وأيضا في ساحات واسعة تحت ضوء اللمبة الخافت. خطب في كل من المدينة والأحلام، لا يفك منها غير كلمات يتحقق من صوابها أو عدمه.

حماسة ترتعد لها فرائصه، فيتذكر رحى الشاوية، وتمنى لو كان هذا هو زمنها الطبيعي وهو طفل الثورة وفتيلها ورمادها.

التفت علي مرة أخرى إلى شاشة مخيلته فيجد نفسه على فرسه البركية المسماة السرحاني حاملا لمنجل، وقد تداخلت الصور وهو راكب.. يرى نفسه بدرب عتيق وسط باريس ولحظات أخرى وسط الحقول والعراصي بالشاوية.

يربط السرحاني بدومة السْمَار ثم ينام في رقعة ظل فرسه وكلما نهض، قفز فوق ذلك الجلمود المنهمر، وساح يقفز على قبب الأولياء والسادات، فالشاوية كلها مَحْرَكٌ يتطاير منه الغبار وغيره. وسينام على ظهر السرحاني في اللحظات التي يتعذر عليه فيها أن يجد زمنا يتوقف فيه ...لا يكون علي بمنجله المعقوف في مشهد مخيلته إلا «عزري العلوة» ضامن هذه الأرض، السائح، الهداوي، البهلول، النبي المغدور بنبوته؟

«لو لم تُختم النبوة... آه ماذا لو ختمت الحياة واستمرت النبوة... سامحني يا ربي، فإني لن أسامح زمن الشاوية».

عليٌّ أم عزري العلوة، السرحاني أم البُراق المرسوم بجناحيه بداخل القصبة؟

...يواصل المسير والقفز وكلما وصل إلى سدرة نزل ليحصدها، ومن أولاد بوزيري إلى أولاد حريز ستكون سدرات امزاب والمزامزة قد نَمَت وتنفست الصعداء.

ليس هناك وقت للضجر أو الموت حتى. فأحرى أن ألتفتَ إلى الوراء، سدرة واحدة يعز عليَّ حصدها بمنجلي فلا أقربها وسط أعداد هائلة أتعبتُها قبل أن تتعبني، سدرة لا شوك فيها مثل سالف من الحرير بضفيرتيه المرميتين في غنج. سدرة لآلة فاطنة الكحيلة بنت الحرار البكر، والمرأة كرامتها في أنوثتها... **رُمْحٌ مَشْدُودٌ إلى قَوْسٍ جَبَّارٍ، يَفْرِزُ مُتْعَتَهُ المُبرحّة في ربوة بكاملها.**

السرحاني يتذكر شيئا فيقفز عاليا وبعيدا، يتوارى عن المشهد فلا يترك خلفه سوى غبارا وذاكرة، ثم يعود إلى سباقه وسط حركة ضاعت فيها السروج خلف التكجكيجة على أرض من الفاسوخ والجاوي وحبيبات الحرمل وأعواد القرفة. وكلما اشتدت سنابك الخيول كانت روائح البخور ترفع أدخنتها بشموخ عاليا.

توقف والتفت إلى أزمانه الغابرة، ثم تأمل طويلا قبل أن يستقر رأيه على أن يطلب منهم عُشُر المال والنوق العصافير والجمال المُكَّارية، فإنْ همْ أجابوا إلى ذلك، حصل المراد وإلا فقدْ عقدَ العزم أن يبادرهم بالحرب والجِلاد.

تبسم ثم نسي كل شيء لما تذكر المرأة ذات السالف الطويل، حينما تقدمت أمامه مشيا، اشتبكت سوالفها برجليها فسقطت وهي تصرخ: «سِيحْتْ بويا».

التفتَ نحو ابنه الطاهر ودون أن يربطه بالموضوع قال له: الهداوي رجل حكيم في حرفته، له سبسي وشقف يسميه كعب النحاس الأسطوري ثم المطوي المصنوعة من جلد الغزال يضع فيها مسحوق الكيف المُدَرَّح بالطابا الخماسية.

حينما يُعَمِّرُ شقفه يقف على «ثلاث بنات»، الأولى تزهى مع الأدخنة المتخايلة لحظة الإشعال الأولي، والثانية حينما تشتعل داخل الشقف وتأخذ

مكانها لحظة التحول من الاخضرار إلى الرماد، أما الثالثة في العروق نحو الرأس وتقول له غن بأحلامك.

***

الولادة تستمر، وأربعة شهور تمر كأنها أربعة عقود من التعلم والخبرة، استوعب خلالها، بالتباس خفيف، الكلمات التي سقط من أجلها الأطفال والنساء والرجال، ومن أجلها كل هذه الخُطب والكلمات... الديمقراطية، العدل، العدالة، الإلغاء، الحرية، الإنسان، الأخوة، المجالس المنتخبة، الجماهير الشعب، حقوق الإنسان، الميثاق.

كان يتنفس عميقا وكأنما يريد للكلمات أن تدخل رئتيه باكتمال، فتخلق رجة أكبر من تلك التي أحدثتها فيه، ثم ترتعد فرائصه.

الرجة رجة الشاوية والمزمزية وهتهوت ومنانة والهبطي، لماذا المسافة التي يتذكرها في ليله المتأخر، بين الهنا والهناك أشسع من المسافة الزمنية طولا وعرضا بين الشاوية وباريس؟

لن يَفُكَّ الظلام خَبَل هذه الحيرة، هل يبقى ليزرع أحلامه في تلك المسافة وسط شوارع باريس المخصبة، فتنبت برتقالا وزعفرانا وقرنفلا وخوخا؟ أم أن الشاوية تنتظره بعوالم الحرْكات وهدايا السلطان، والظهائر، والرؤوس المعلقة في مراكش وقصبة سطات، وفاس وسلا وأنفا.

- نعم، هو الغول يقف على رأسها ليأخذها كُرها بعدما صارت هي أمي وأبي ودمي... فتقول له ستأخذني حينما أنهي هذا الصوف القليل المتبقي بين يدي.

تغزله بالنهار ثم تفكه بالليل، حتى تمدد الزمن ويأتي الفارس ليحررها من منافيها وضيمها.

ليل باريس فاغر فاه للمفاجآت، يتذكر علي الشاوي فيحكي للطاهر وهُمَا على فراشهما بالطابق الثاني، الغرفة الأولى على اليمين:

- في عهد قديم وطاهر مثلك، كانْ حْتَّى كانْ، الحبق والسوسن، كانت أرضنا التي نحن فيها تسمى الشاوية، حجرا قفرا، ودومة وصفير الأفاعي. خالية من السكان إلا قلة من الغلاظ المنفيين.

كانت أرضا بورا، ومنفى رهيبا، حتى جاء اليوم الذي وطأت فيه أقدام امرأة جميلة، مثل أختك منانة، تلك الأرض فزلزلت الأرض زلزالها، وصار الزحَّاف ينقز الحيطان، والأعمى يخيط الكتان.

كان جمالها قدسيا، دون أن يعرف أحد أهيَ مَلَكٌ نزل من السماء في مهمة إعمار الأرض أم خرابها؟ وكان المطاف قد انتهى بها، في العلوة قلب الشاوية الساهد، فكانت بالنهار تغزل صوفا حريريا أتت به معها، وكلما حل الليل، فكَّت كل ما غزلته والناس حولها يأتون بكل أكلها وشربها، ينتظرون منها كلاما تلطف به حرارة وجدانهم.

مرت سنوات قليلة جاء إليها الناس من مناطق كثيرة، من الشمال والجنوب، كما جاؤوا من الشرق يخطبون ودها، فكانت تقول لهم: «إنني انسج قفطانا، سيقيسه كل واحد منكم حينما انتهى منه، وسأكون للذي جاء على مقاسه».

كان اسمها الشاوية، تشوي قلوب الناس الذين غصت بهم الأماكن، ينتظرون بعائلاتهم وبهائمهم، يحرثون ويسرحون، ثم ينتظرون القفطان، وهي دائما في شبابها العجيب، فيما هم يشيخون ويموتون دون ضجر وإنما ينتظرون، ثم تفرقوا في الأرض وبات حبها حب الجموع للحفدة، إرث لا يبلى.

ظلت الشاوية بسحرها النوراني تنسج القفطان، بالنهار والوهم بالليل والحقيقة أنها كانت تنسج لتلك الأرض زمنا جديدا.

لكن في صباح ما، ستختفي الشاوية المرأة الملاك، وتبقى الأرض باسمها. والحفدة يتوارثون الانتظار... ووصيتهم لأبنائهم إذا ما رجعت وسترجع. وإنه

لوعد به توعدون، الاحتفاظ بها وإسعادها أيها السعداء.

***

عشرة أشهر نسجت قفطانها في باريس، فاشتدت المظاهرات، وتكاثرت الخطب الحماسية، وبالحماسة ذاتها سقط الكثيرون بطعنات السيوف ورصاصات مصوبة.

بحث عن الطاهر، الذي لم يكن يفارقه من قبل أبدا، فلم يجده، انجرف أخيرا بعد طول انتظار. فالمظاهرة هذه المرة كانت ضخمة رغم الشهداء الذين يتساقطون أمامها، أعياه البحث فعاد في المساء إلى غرفته بالفندق ممنيا النفس بأن يلقاه لكن ظنه خاب وتبخر، وخرج بالليل، يزور كل المجتمعات العلنية والسرية، وحضر حفلات الشهداء، دون جدوى، ثم انتقل إلى الأماكن السرية للثوار الآخرين، فلم يجده.

لم يكن مع جثث الثوار، وكل مساء، متأخر، يعود ليجد العجوز تسأل، وهي تتأسى، ثم تقول له «أيكون قد وجد خاله الذي كنتما تبحثان عنه؟» يومئ لها علي، شاكا، لأنه لو كان الأمر كذلك لجاء به إلى الفندق.

شهر من البحث القاسي عن الطاهر الذي بات جزءا من الأحلام الضائعة في شوارع باريس يبحث عن قفطان الشاوية. قالت له العجوز: «بالتأكيد إنه التحق بالثوار في الجبال، فهم ينشرون الثورة خارج باريس».

كان مترددا أن يقول في داخله: ليبق الطاهر حيا، فهو هدية مني، ومن أرض الشاوية للثورة والحرية، ثم اقتنع وهو يقول للعجوز إن الطاهر بطل هذا الزمن حيا أم شهيدا.

لن يضيع أحد في هذا الزمن، إلا الخونة وأعداء الحرية، هكذا خمَّنَ واقتنع فترك للعجوز مالا وحوائج الطاهر موصيا إياها، إذا ما رجع يوما، فليأت إلى الشاوية.

شدَّ عليٌّ رحاله، وهو مُشبع بالأحلام الكثيرة التي حمل من بذورها ما يزرع كل السهول الخصيبة.

- IV

مناجل حديد، سنابل قرنفل

- **قال المسعودي**: «وأما المغرب فيقسي القلب، ويوحش الطبع ويطيش اللب، ويذهب الرحمة، ويقشع الضراعة (...) ولديارهم في آخر الزمن نبأ عظيم، وخطب جسيم في أمر يظهر وأحوال تبهر».

قال الشيخ الهبطي: «زمن كامل ونحن نرغي ونزبد... والناس لا تفهم هذا الشيء».

دخل القصبة من بابها الخلفي فوجدَ المزمزية مازالت تحمل المغزل والصوف، وخُيِّلَ إليه أنها تفك بالليل ما نسجته بالنهار.. دمعت عيناه وهو يعانق منانة وهتهوت، فأخرج لهما الملابس والعطور والأشياء الغريبة، وحينما سألته المزمزية عن الطاهر. قال لها بأنه بقي عند خاله بفرنسا.

في صبيحة الغد استدعى الشيخ الهبطي، الذي ارتمى يقبله على وجهه وعنقه وروحه، أخبره بهدوء الأحوال ولم يشأ أن يقلق راحته بتلك التفاصيل الصغيرة التي سوَّاها المنصري، أما القائد فقد لازمه طول فترة الزوال وما بعده ليحكي للهبطي عن باريس وثورتها ومبادئها وعن أيامه بها، وعن الطاهر الذي بقي هناك منخرطا في صفوفها يبحث عن قفاطين الحرية حتى يرمي عنه قفاطين المنفى.

كان حديثهما حميميا عن سنة من الغربة، ثم يسأله من جديد عن الشاوية، فلم يجد بُدّا من أن يحكي له عن بعض الخيانات من بعض المقدمين، وآخرين ممن عاثوا في الأرض فسادا: «نعم، حاكمناهم بكتاب اللّه وسنة الرسول، وقوانين القائد، فقطعنا الرؤوس بالسيف الباتر لسلطان البوادي والحواضر».

ثم أخبره أنه قام لمرتين بجولة تفقدية لجهات الشاوية، فوجد أبناءها قد تعلموا، وأراضيها تحرث جماعة، كما تم جلب سلالات من الصردي، والأبقار من مناطق مختلفة من أجل التلقيح.

- الطاهر، أبا هبوط، هل هو من تاه أم أنا أم الشاوية؟ وهل صحيح أن تلك المرأة التي أغوت الجميع بجمالها ووعدها لما يربو عن قرنين... هي هذه الحقول التي أحكم عليها؟ قفطان أم قيد؟ منفى أم خيمة كبيرة بقلب صغير؟

في حديثه مع المسمار، فَهِمَ القائد كل شيء عن الشاوية فترة غيابه. وقام بنفسه بجولة دامت أربعين يوما تفقد خلالها أحوال الشاوية وأهلها، وحين عودته، انتظر حتى هطلت الأمطار، وفي الواحد والعشرين من شهر ديسمبر وبحضور وتهيئ مسبق مع الشيخ الهبطي استدعى الطاهر المزمزي واختلى به

في جلسة دامت أزيد من خمس ساعات. حكى له فيها ما رآه بباريس وأيضا ما رآه أثناء جولته بالجهات.

بقي الطاهر المزمزي مشدوها وهو يستمع إلى هذا الجديد من فم القايد. فعلم أنه ينوي القيام بتغييرات في الشاوية لم تقع أبدا في كل الثغور الإسلامية.

في ختام جلستهما، عين القايد، الطاهر المزمزي، نائبا له، بميثاق دوَّنه الشيخ الهبطي، واتفقا على العمل به سريعا قبل أن تفاجئهما رياح معاكسة.

كانت أول خطوة لهما هي تسليم مفاتيح سجن القصبة الأرضي، وبعض السجون الأخرى السرية، للشيخ الهبطي قاضي الشاوية، والذي أطلق سراح كل من خالفوا القائد في الرأي، فجاء عفوه هذا ضربة قسمت ظهر الشاوية لزمنين.

صاح البراح بأمر من القائد علي الشاوي:

يا أهل الشاوية العظمى، سيد القائد يقول لكم: الحرية والكرامة والعدل والأخوة هي بحال الماء والشتاء والشعير».

تاه المسمار بسرعة، وأحس بأشياء تتحرك بداخله... في حجم الحقد والكراهية تجاه التغييرات الجديدة التي جاء بها القائد، والتقارب بينه وبين الطاهر المزمزي. «قائد الأمس ليس هو قائد اليوم»، قال في نفسه، وهو ذاهل كأنما هي نار أحرقت جزءا كبيرا من حساباته. لهذا بقيَ صامتا يستمع فقط. مُحركا رأسه خلال الاجتماعات اليومية الطويلة التي تجمعه بالقائد والهبطي والطاهر. وهو يسمع كيف أنهم قرروا تشبيب الشيوخ والمقدمين، والتقليص من سلطتهم، مع ترشيد الجبايات والمكوس والإبقاء على الزكاة، وإنشاء بيت المال تجمع فيه مساعدات توزع على المحتاجين، كما اقترح الطاهر المزمزي بأن تتحول الأراضي التي هي في حوزة القائد إلى أراضي جموع مشتركة للفلاحين

في كل الدواوير. واقترح القائد بدوره بأن يجتمع الشيوخ والمقدمين ليوم واحد في كل شهر داخل القصبة، يخصص للتكوين حول كيفية التعامل والتسيير والتراسل.

قال القائد هذا الكلام، ثم دفع بيمناه إلى داخل رأس جلبابه المتصل بظهره، فسحب سيجارة وعود كبريت أكبر حجما من السيجارة التي أشعلها، كما أشعل واحدة للفقيه، بدوره، ثم استمر النقاش والتدوين وبعث الرسائل والدوريات وتجنيد البرّاحين على بغال ثُنِيَّة يسمونها بالفرخ.

دورية تنظيمية رقم 1791/11 ميلادية، من قائد الشاوية إلى كل الشيوخ والمقدمين:

الحمد لله وحده، بعد التحية والسلام:

«نلتمس منكم مساعدة من بعثناهم من عندنا، من براحين وأعوان، لشرح ما ننوي عليه، حتى يتحمل أهل الشاوية مسؤوليتهم كاملة غير ناقصة.

ونتمنى أيضا العمل من جانبكم على تحسيس أهل الشاوية بالمسؤولية ومبدأ الشورى والسلام.

رسالة الشيخ الهبطي إلى شيخ أولاد بوزيري:

بَلَغَنا ما سمعناه من تصرفاتك، أنتَ وبعض المقدمين الذين هم تحت إمرتك، لهذا نُنذرك كي تكف عن مضايقة البراحين في الأسواق والدواوير.

وقد أعذر من أنذر!»

سنوات ثلاث بين النقاش والتكوين، كان فيها التناوب بين الهبطي والطاهر والقائد على إلقاء الدروس والتباحث وتفسير الخطط الجديدة التي تعتمد على أسس كان لابد من شرحها والتمثيل لها، فيفسر الشيخ الهبطي الشورى بالتشاور والتعاون والبر والصدق والإيمان القوي، كما يفسر القائد الديمقراطية والعدالة والمساواة، أما الطاهر المزمزي فقد كان يحدثهم عن الحلم الكبير الذي ينتظر الفلاحين.

وخلال هذه الفترة اختلطت الأشياء على العديد من الناس واتضحت شعاعات الأمل عند آخرين. فيما كان بعض الشيوخ والمقدمين والأعيان قد تذمروا كثيرا، إذ كيف يتساوى السادة مع الرعاع، والأعيان مع الحراطين والخمّاسة؟ ضامهم الحال كثيرا حينما تم إلغاء قطع الرؤوس وأعيدت للفلاح كرامته المدفونة وحريته الغائبة، وأيضا لما توالت الأخبار بكل التغييرات في التسيير، والقضاء، والحرث الجماعي... فاستاء القطاطعية الذين عادوا يفكرون في القائد الذي عاد من جهنم! يلبس قفطانا جديدا من الحرير الأبيض والحيرة الداكنة.

الشيخ الهبطي جد حماسي حينما اختلى بالقائد، وحثه أن يجمع كل أهل الشاوية:

- من فوق ربوة عالية.. وأنتَ على فرسك البركي ذو الغرة البيضاء، تلبس بُرنوسا بلون أحمر، وقفطانا ساحرا، كذلك الرزة الملفوفة بإتقان وحكمة.

الناس والشاوية تنتظر وتصغي، فتقول لهم: أيها الناس، إن أحسنت فأعينوني، وإن أخطأت فقوّمُوني.

ثم يقول رجل من الحاضرين كان بعيدا ولكنه يصرخ ويقول لك: والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقوّمناك بسيوفنا.

آنذاك ترفع صوتك منتشيا: أيها الناس إني قد وُلّيتُ عليكم ولست بخيركم» .

يضحكان ثم يتفقدان النسخ الأربع من الدورية التنظيمية التي نسخها النساخون. يأمر ببعثها إلى الشيوخ الذين سيعممونها بدورهم على المقدمين.

دورية تنظيمية رقم 1794/09 م

الحمد لله وحده.

نوجه كتابنا هذا إليكم باش نخبركم بأن تغييرات هامة غادا تحصل بخصوص تنظيم الشاوية. لهذا ندعو جنابكم للحضور إلى القصبة صبيحة يوم الجمعة صفر الخير من السنة الجارية من أجل تباحث القضايا التالية:

أولا: إعادة تقسيم الشاوية إلى عشرين مشيخة بدل أربع؛

ثانيا: الشيوخ لابد أن يكونوا من حَفَظَة القرآن الكريم يعرفون القراءة والكتابة. وألا تقل أعمارهم عن الخامسة والأربعين، ولا تتجاوز الستين، متزوجين لا سابقة لهم في الخيانة والارتشاء والقتل والاعتداء بل لابد من توفر شرط الأخلاق فيهم والخوف من الله واحترام الإنسان ورأيه. وأن يحصل الواحد على إجماع الدواوير والقبائل بطيب خاطر دون إكراه أو تدليس.

وهذا ما سنعمل على متابعته، ونسميه بانتخاب الأكفأ والصالح المصلح؛

ثالثا: في نهاية الأمر سنُكَوّن مجلسا للشاوية يشبه دار الندوة والشورى. يتكون أعضاؤه عن طريق الانتخاب ونحدد وظائفه وحدوده وأعماله. هذا بالإضافة إلى نقط أخرى تتعلق بالأرض وعلاقات الشاوية مع الايالات الأخرى...

نلتمس منكم مناقشة هذه النقط مع المقدمين والفقهاء والناس الذين ترون فيهم أهلية إبداء الرأي.

ستستمر أعمال اجتماعنا هذا لمدة خمسة أيام وما فوق.

دامت لكم السعادة

اسم وخاتم أخوكم القائد علي الشاوي

وبالموازاة ينتشر البرَّاحون على بغالهم وبحناجرهم التي لا تمل أبدا في الدواوير والمداشر وعلى حواف الأودية، والغابات والأسواق. وفي المساء يرجعون فتنطلق مجموعة جديدة للبراح في الليل، حتى سمع كل أهل الشاوية وحيواناتها وترابها وحاجاتها الكثيرة، بما صاح به البراح.

قال البراح:

«يا أهل الشاوية العظمى... سيد القائد يقول لكم أن كل واحد كيشوف في نفسه القدرة على خدمة البلاد والعباد. فليتوجه للقصبة، راه غادا تكون ثلاثة أشهر ديال التكوين، والإفهام حتى يكون الانتخاب في الشاوية وتحكموا

أنفسكم بأنفسكم».

لم يستكن المنصري المسمار إلى التحسر على الزمن الذي كان فيه سفاحا. ولكنه استمر ينسق، في خفاء، مع الغاضبين من بعض المقدمين في المزامزة وامزاب وأولاد سعيد، وكذا مع بعض القطاطعية. يناقشون «الجنون» الذي ينتشر بينهم والمفردات الغريبة التي يُراد لها أن تتحول إلى الملموس المرئي: الثورة، الديمقراطية والعدالة والحرية.

تواصل التنسيق بتواصل عمل علي الشاوي فخلصوا في النهاية أنهم أباحوا دم القائد. ولأن المسمار كان يمسك بكل سبل العيون والآذان التي تأتي بالأخبار. فإنه استطاع أن يشل حركتها مؤقتا حتى لا يفتضح أمره.

أباحوا أيضا دم الهداوي الشاعر الذي نظم قصيدة عن الحرية، ودم الطاهر المزمزي والشيخ الفقيه الهبطي وكل الأعوان المقربين من القائد.

***

مرت على رجوع القائد أربع سنوات، خلالها توفي السلطان. فعمت الفوضى بين مراكش وفاس وعادت السيبة واستنهضت كرامات الزوايا هممها. لكن ما كان بالشاوية لم يجعل أهلها أو القصبة تحتار فيما يجري.

وهي السنة أيضا التي عاد فيها بعض الطلبة من فرنسا ممن كان الشاوي قد أرسلهم على نفقته. فأخبروه أن الطاهر ابنه الذي أوصاهم بالبحث عنه يوجد حيا مع خاله وقد تخلى عن مهامه الرسمية كقنصل وانخرط في دم الثورة.

اشتغال هؤلاء العائدين بالقصبة إلى جانب القائد زاد من نار المسمار. فضاعف من تخطيطاته وبحث عن سبل التعجيل بإنهاء جريان هذا النهر الجارف.

أما الشيخ الهبطي، فإنه انكب رفقة طالبين ممن عادوا من فرنسا، على تدوين كناش صغير عنونه: «حقوق الإنسان في بلاد الشاوية وكل مكان». تضمن

ثلاثين بندا تتحدث عن خلاصات النقاشات الطويلة التي عايشها داخل القصبة وخارجها ومستنيرا بالتجارب، وما يتحدث به القائد.

قال علي للمزمزية مازحا، بعدما استفاق من قيلولة الظهيرة. ان الطاهر ابنهما قد اشترى لها حمارا باللونين الأزرق والأحمر. أهدابه بيضاء. ثم جلس مع منانة يلاعبها ويوصي هتهوت بأن يعوي، حتى تضحك منانة التي تعودت ذلك.

يختلي بنفسه وهو يدخن السيجارة، ثم يأخذ أوراقا كثيرة يسحب منها بعض الوريقات التي دون فيها مشاهد من رحلته الأولى إلى فاس، أو الثانية إلى باريس، أو تلك التي رسم فيها تأملاته، وكل ما يفكر فيه.

من تأملات علي الشاوي

الورقة الأول: «كأني وقعت في منطقة الحيرة، هل استمر فيما كنتُ فيه، أم أجرب أفكاري، والتي أرى الآن بوضوح أنها ضرورية.

أريدُ العدل والحق والديمقراطية. كما أريد الطمأنينة والسلام. الموت يقهر كل شيء، وهو الوحيد الذي لا أستطيع التفكير في وسيلة للتخلص منه غير الإيمان به طواعية.

أكتشفُ أن الحب هو السنبلة التي تجمع في عودها الأخضر. كل تلك الخصال التي نسعى إليها. ألم تكن البذور حُنما في السماء؟

لو أستطيع أن أحول نظرة المزمزية وحنانها وسمو حبها إلى بذور تزرع إلى جانب الشعير والقرنفل وباقي أفكاري. لو أستطيع لطلبت من الموت أن يأتيني الآن هادئ البال.

هتهوت ابني... كم هو جميل.... يشبه كثيرا الثعلب الصغير الذي كان يتبع سيدي بارك بوكرن.

منانة امرأة في حجم لون الشاوية. ولماذا تمتخ الوجوه حينما تكبر وتشيخ... لماذا؟

الورقة الثانية: «أفكر طويلا لماذا حوّلني ربي من راع للأغنام إلى راعي

أهل وزمن الشاوية؟ الغنم والبهائم لا تعرف الغدر والخديعة. ولم تكن تتكلم بلسان التزلف والتلوين.

هل هو امتحان لي، من خمّاس سارح محكور إلى قائد؟

كان عليَّ أن أغرق في ملذات الحياة والتلذذ بتعذيب كل الذين أحقد عليهم، ولكن السارح دائما يبقى سارحا، وها أنذا كذلك.

قد أقسو، ولكن ذلك ضروري، حتى اعتقدوا أني أفطر بالجثث، وأتلذذ برؤية الرؤوس المعلقة على أسوار القصبة، وأشجار العراصي وينسون أني سأكون كافرا إذا لم أحمي الضعفاء، فها هي امزاب تريد أن تلتهم أولاد سعيد؛ والمذاكرة تسعى إلى ضم مديونة وزناتة والمخزن غول كبير وراء كل هذا. قد أخطئ، لكني لا أتعمد ذلك، وقد أصيب وأنا أقصد وأنوي والنية هي أساس العمل.

لا أنفي أني انغمست للحظات في زمن الزهو وحرْكتي الخاصة، وذلك لم يكن إلا مجاراة لزمننا وتنفيسا مني على الضغط والمشاكل.

أنا لا أتنكر الآن لتلك الفترة، بل أعتز بها وأعتبرها من أجمل اللحظات في حياتي لأنها زمن ما قبل الولادة».

***

تهيأ بقوة لفكرته. فاعتقد المسمار أن القائد به مس، إذ كيف يعقل أن يفكر في مجلس للشاوية يتكون من أفراد من غير المخزن يّنتخبون عن الجهات الأربع باثني عشر منتخبا عن كل جهة يمثلون جهاتهم ويتجددون كل ثلاث سنوات؟

فكروا جيدا وتباحثوا. ثم بعثوا بالرسائل، وركب البراح بغلته ووصلت الدوريات لنشر مضامينها بين الناس. كما تجنّد الطاهر المزمزي والشيخ الهبطي وبعض الثقات لشرح هذه المسألة في الأسواق والدواوير بين الناس، لكن العديد منهم لم يصدقوا كل هذا. كما أن عراقيل عِدة كانت تفتعل، لأن المسمار أحكم اتصالاته ببعض اليهود الذين يقيمون بأولاد بوزيري وبعضهم

من تجار الصويرة ومراكش، كما توطدت علاقاته مع عصابات ساهمت بدورها في إشاعة أن القائد قد كفر، والجهاد فيه حلال.

الناس لم تصدق، والناس تصدق، وزمن الشاوية يلتهب وقفاطينه تحترق، فلا أحد يستطيع أن يشغل تلك الرؤوس عن أفكارها، ولا أحد يمكنه أن يُخمن كيف هي أحلام القائد وهو يتخيل جيوش الفلاحين بِرُزَزِهَا وجلابيبها ووجوههم القمحية.. يحملون المناجل ويتقدمون نحو السماء، نحو الأرض وباطنها نحو رحم زمن الشاوية.

من تأملات القائد:

«هؤلاء الشيوخ والمقدمين رغم ما قلناه وفوق مكاتباتنا لهم لم يتبدلوا، سهل عليهم الانقياد نحو الظلام، وصعب أن يسيروا في النور.

لا أعرف لماذا يرفضون تكوين مجلس للشاوية وميثاقها؟ ولماذا يُحَرفون فهمنا للحرية والحق والمساواة والتشاور، وكيف أنهم تقززوا لما جاء الناس من الدواوير ليجلسوا معنا ويناقشوننا مشاكلهم دون خوف أو رهبة؟

من يحرضهم علينا؟ من يَملي عليهم التعويق؟

قالوا عني إني كفرت باللّه ونعمة السلطان الجديد..

وقالوا إني شربت من ماء غربتي الذي لحس عقلي..

كلام كثير جاءني به المسمار.. هذا الداهية الذي هو بدوره لم يعد مثلما كان في السابق.

هل أنا الذي تغيرت أم أهم المتبدلون؟

..يلزمني السير بشكل سريع، ولكني محتاج للترويح والتنفيس عن كل هذا الثقل النفسي.

الزوايا، البدع، الأولياء القدامى والجدد والمنشقون الذين انشقوا عن الانشقاق الذي لن يقف هنا... أولياء على زوايا وهمية يملأون الشاوية بدعا. ويتسابقون لحرث الخرافات في كل الحقول البورية والسقوية.

تيه طويل لزمن غريق نحاول أن ننتشله أو يجرفنا إلى هاويته..

- زمن كامل ونحن نرغي ونزبد... والناس لا تفهم هذا الشيء. مذ

هناك... وأين الخلل يا علي. يقول الشيخ الهبطي في حوار طويل بينه وبين القائد. فيرد عليه :

- لا. السنابل أينعت وأكلناها. أما الآن فسنبذر القرنفل بأرضنا وسنواصل.

- الناس مازالت لم تنضج بعد لما تُقدمه لها على طبق من ذهب والصحيح أن ينتزعوا كل شيء بأنفسهم.

- نحن منهم يا هبطي. وإذا لم يطلبوا. فنحن ننوب عنهم.

- بل أنت تعكس الآية... إلثورة. يقوم بها الشعب وليس القائد!

- بل أنا قائدها وضحيتها. ثم أن الشاوية هكذا. ألم تقل أنها اجتمعت من أجل وهْم كان في صورة امرأة جميلة... مرة أخرى سنجتمع على ثورة جميلة. تترجم أحلامنا. ثم تذهب إلى جهة أخرى.

- يا علي إننا نحارب الصخر... هناك من بداخلهم أو من خارجهم من يحرق خطاباتنا.

- كيف يا هبطي؟

- إن الديمقراطية التي لا ينطقونها جيدا إلا بالمقراطية تعني عندهم الكفر والإلحاد والقرطة التي تقطع عليها الرؤوس.

- وماذا أيضا؟

- والثورة (يضحك بشحوب). سألني البعض في أحد الأسواق خلال جولتنا بأنها تنطح مثل الثور وتبقر البطون. وآخرون قالوا هي الفوضى والموت المجاني... والسيبة.

- أنت. آ بويا الهبطي. تحاول أن تملأني يأسا.

- لا ... ولكن الكلام كثير عنك وعن الذين عادوا بعلمهم من فرنسا. وعن المدارس والبعثات والسيجارة. وحديثك... (ثم يخفي دمعة سريعة الجريان على خديه) أنا لا أخاف إلا عليك. وأخشى أن يغدر بك الكفار. فهم لا يرحمون.

-حياتي لا تهم.... ولكن حياة زمن الشاوية هو الأهم. لأننا يا فقيه إذا استطعنا أن نسلح الفلاحين بالحرية والكرامة والعدل وكيف يحسنون الحفاظ عليها والدفاع عن كل شيء فإن الذي سيقتلني لن يستطيع أن يفني شعبا

مسلحا، يعشق الموت على حياة الزمن القديم.

***

زمن الشاوية يزداد لهبا. وجهاته تتأرجح بين الوضوح والالتباس. ودسيسة المسمار قد ربطت خيوطها مع عناصر متنوعة في الداخل. ومع جهات أخرى خارج الشاوية. فلم يعد أمام المسمار غير ضربة التنفيذ.

أما القائد فإنه سيسحب أنفاسا عميقة يتلذذ بها من السيجارة. ولا ينسى عاداته الصغيرة في جلوسه مع زوجه وطفليه. أو عزلته للكتابة والقراءة. ثم دردشاته الطويلة مع الشيخ الهبطي قبل وبعد الاجتماعات أو خلال استعراضهما للحالات الشاذة وكيفية معالجتها. دون التخلي عن جلسات السمر والتنفيس. حيث يتحدثان عن المستقبل والحياة. مستفهما أحدهما الآخر هل بإمكان الأحلام المدفونة أن تتمرد وتنمو؟

في ليلة يوم الخميس. خرج القائد من عزلته متجها نحو القبة الليلية التي توجد على يمين مدخل باب القصبة. فسلم الهبطي ورقة كتبها... فيها تدويناته التأملية. ثم قرأ:

«الموت أحب إليَّ من هذه الحياة. نعيش مثل الحيوانات. انظرْ إلى ذلك القمر. أو تلك الشمس التي ستأتي بعد ساعات.... هل تستطيع أن تصل إليها. تسلم على ملائكتها وشياطينها؟

إني أفكر أن أكون أو لا أكون. حتى أجعل أحلامنا تمشي فوق الأرض. صحيح أني كنتُ سارحا وراء البهائم. وكان على مثلي أن يكون عكس ما أنا عليه الآن. زاهدا في الحياة أبحث عن حياة الآخرين.

لا أريد أن أكون قائدا مثل البغال. اشتري مكانتي بالخطف والتجويع. وأبعث على سروج مذهبة بلون المراء. إلى السلطان جزءا مما أسرق.

ربما أنا هنا لأجل شيء معين. ماتت عائلتي غدرا في الغابة دون أن تجد ذئبا يعوي دفاعا عنها... وأنا هنا صدفة أحيا...

أحس بتعب وأحس أيضا بأن الأخطاء التي ارتكبتها هي ثقل كبير على

كاهلي، لن أتخلص منها إلا بنشر أحلامي في كل السهول».

***

طوى الورقة، وكان القائد قد جلس مُحاطا بالطاهر المزمزي وأربعة من المستشارين المعاونين والعائدين من فرنسا، وقربهما الفقيه الشيخ الهبطي والشاعر الهداوي، وقد اعتذر المسمار لأنه يشعر بصداع عنيف في رأسه.

كانوا يناقشون - والهداوي قد اتكأ عن ظهره في نصف نومة - الصيغة النهائية لترتيب كل ما يتعلق بمجلس الشاوية، وتحديد العديد من المواقف والتعهدات... واستمر النقاش حتى فجر يوم الجمعة على ضوء خافت.

من تلقاء نفسه، ولأنه الوحيد الذي لم يتكلم، قام الهداوي ينشدُ على مسامعهم قصيدة الثورة التي نظمها في تلك الإغفاءة بين نوم متقطع تقاطعت فيه الأحلام بحديث الآخرين.

في نهوضه سقطت الشمعدانة الوحيدة، فأظلمت القُبة، إثر ذلك صاح القائد بعدم إشعالها، مُخاطبا الهداوي بأن ينشدهم من وحي زفَّاناته الجميلات.

بصوته البح الرخي المجروح، وقف على صندوق خشبي وسط الظلام وأنشد:

مرحبا بالثورة الآتيه ... رقصُ على سهول الشاويه
خيراتها في كل ناحيه ... ونورها في الحاضرة والباديه
تَقَدَّمْ أيُّها الشّاوِيُ واضْرِبْ ... بأرضكَ الأرضَ تستوي الهاويه
تَقَدَّمْ أيُّها الشّاوِيُ واضْرِبْ ... بزمنك الزمن يكن زمن الشاويه.

ينشد بحماس وهو يعيد الأبيات مرارا في ذلك الفجر وكأنه يريد من الكلمات أن تزندَ بعضها البعض فينفجر منها الضوء. ولكنها زندت شيئا آخر وسط تلك الجلبة والرجة العظيمة المتجهة من خارج القبة... صراخ وتحذير وآهات اثر طعنات غادرة.

هجوم المسمار على القصبة. وبالتحديد القبة، كان ذلك هو توقيته، فبدأ يقتل يمينا وشمالا، ثم يدخل إلى ظلام القبة والهداوي فوق الصندوق يكرر آيات قصيدته... تبدأ الطعنات تنهال بدون حساب أو هوادة على الأجساد التي باغتتها المؤامرة.

ومثل كلب مسعور كان المسمار يقود الدسيسة وهو يصرخ أن يقضوا على الجميع... أما الشيخ الهبطي الذي كانت أحاسيسه تتنبأ بهذا اليوم... فقد زحف بطعناته هاربا بعدما رآهم وقد غرزوا سيوفهم وخناجرهم المتزاحمة في جسد القائد.

صراخ مخنوق وفجر مبحوح، والسعار قائم حتى الضحى من يوم الجمعة حيث أمر المسمار المنصري بإخراج كل جثث القتلى إلى ساحة القصبة وسط أمطار تتساقط بشراسة.

جسد القائد الممزق والطاهر نائبه الذي لفظ كل أنفاسه، والأربعة والحراس والنساء وكل من كان بداخل القصبة.

صمت شاذ وسعال حاد من أحد القتلة وهو يجر جثثا أخرى حتى يرصفها إلى جانب الأولى والأمطار لا تتوقف.

- أين جثة الهبطي الكلب؟

قاده سؤاله إلى ذلك الباب الذي لا يقربه أحد داخل القصبة، غير الفقيه والقائد، فهاجموه وتعبوا طويلا لما كسروا الباب الأول والثاني ثم الثالث، ليجدوا بيتا للزوجية بباب خلفي عانوا كثيرا قبل أن يكسروه فيجدوا دهليزا يقود نحو وادي بوموسى واسطبلا كانت فيه بغال وجياد مربوطة.

فقه اللعبة، وأحس أن القائد قد خدعه وهو ميت تحت الأمطار أما الشيخ الفقيه الهبطي فإنه حينما حمل طعناته والجميع يريد أن يقطع أنفاس القائد، اتجه نحو ذلك الباب فدخل على المزمزية. وحمل الصندوق، ثم ركبوا هم الأربعة، بغلين وحصانا، واخترقوا السهول نحو المناكرة، الوادي بمياهه والفجر بدمائه والمطر والدسيسة.

مات الشاوي وهو يتأمل ويصغى. والهداوي في أوج انفعاله سقط، ولعله الآن في موته يصرخ:

- لماذا؟ من قال اني أريد أن أموت الآن. شهيدا أم عبدا، كان عليَّ أن أبقى حيا، أقرأ أزجالي في السادات بين البهالة والمذاكرة، كان عليَّ. كان علي ماذا؟

الهداوي بقامته الطويلة والرقيقة. الشبيهة بعرق السوس، عيناه ناعستان على الدوام - لكنهما ماكرتان، ملتحي. بشعره شعيرات أمامية محسوبة ذات لون أبيض، وأماكن جدباء من يأسه.

لم يكن يتصور أبدا أن يتحول إلى شاعر القائد. من قبل كان يقول إنه خديم البهلول والشرفاء الصالحين. لهذا فقد خلف كناشا من صفحات كثيرة من الأزجال تستعرض أسماء أولياء الشاوية وكراماتهم الخارقة في المداواة والانتقام والعشق. ومُدونا ملحمة عالية التأثير والانفعال: حكاية العلوة ومواليها. وفضاءاتها... يرسم المعاني للشموس وظلالها. لحركة الرياح وصوت الماء في الآبار. ونار الحرائق وأسماء كل الأشياء.

كُناش الأزجال سيكون هو المرجع الأثري للشيخات والذاكرة. ودليل الباحث عن وجهة حيرته. وحتما لو كان الهداوي يستطيع أن يستعيد حياته لظهيرة واحدة من وسط هذا الموت الغادر. لو يستطيع.. لنظم خاتمة أزجاله وقصائده مناحة يروي فيها حكاية الشهيد والمسمار والظلام... مرثية تليقُ كي تكون المشهد الموسيقي الفادح لذلك الفجر الماطر بالدم والذبائح وسط ساحة القصبة. لو يطول لَدَّ يُمناه فيمسك من وسط موته. بتلك الخيوط المطرية ويقف لوقت محدود كان منسيا من رصيد زمنه الأول حتى يقول:

للموت اسم واحد ومكان واحد. لكن الحياة تزخر بالمعاني والأسماء... السَّبْسي والكيف.. سنبلة الروح. وْذِينَاتْ الفارة المبرصة. رؤوس النمل. كعوب النحاس. المطوي والعيسي.

آهْ عَمَّرْ الهداوي مَاتْ
خَلاَّ ثلث قْصيداتْ
وَحْدَة هي النور في الظلمات
وحدة هي الظلام في الشموسات
ووحدة هي الروح اللي مْشَاتْ.

***

ذُبحت الأحلام والثورة فجرا. في ليلة ماطرة. وذُبحت السكينة بخنجر حاف مِلْحاح. فدخلت الشاوية عهود السيبة من جديد بعصاباتها. وعادت التناحرات ورجع الشيوخ والمقدمون المعزولون إلى مناصب اخترقوها فبنوا

السجون وشرّعُوا للقتل. وتهيأ العدول من جديد لكتابة الزور. ثم مُلئت المطامير بالهياكل العظمية واختفى الأمن والوئام.

عادت ريمة إلى عادتها القديمة. وتنكر الشيخ الهبطي في زي عطار مع ابنته المزمزية وولديها.

منانة تسأل وتبكي: أين بويا. ولماذا خرجنا من القصبة. تحتها الماء ومن فوقها الماء. وكيف يتنكر با الهبطي ويصبح عطارا وقد حلق لحيته وغير من ملابسه ولون رُزَّته؟

امزاب أم المزامزة؟ الموت أم الموت؟ المناجل أم السنابل؟ سيرة حالكة افتتحت صفحاتها بعد أزيد من أربعة وعشرين عاما من حكم القائد.

يتحسسُ الهبطي جيبه الداخلي فيخرج تلك الورقة ليجد على ظهرها خدوشا وبقع دم ثم يطويها وهو يفكر في هتهوت والطاهر وتلك المرأة التي كانت تسمى الشاوية... وستعود الآن لتجلس بالقبة البيضاء داخل القصبة من أجل الاستماع إلى النشيد ونسج قفاطين جديدة للمنافي الصعبة.

- V

وحدها العواصف..

قال المنصري: «يا أهل الشاوية اللثام. إن الحرية أصبحت حريكة ستحرق الأخضر واليابس... ومن دخل دار المخزن فهو آمن.

قال المنصري أيضا: «إن الحرية وَلاَّتْ حُرْيكة... عهد القرطة والمقراطية انتهى، وهَاكُم عهدنا الجديد، الطربوش ودار المخزن».

قال الراوي: الشاوية دَرَسَة كبيرة لن تذريها جميع المذاري، ومنفى شاسع مأهول بالملاحم.

صاح البراح (والذي سيختفي في اليوم الأول من تباريحه):

«يا أهل الشاوية اللئام، المسمار قتل سيد القايد، وبقيتم في هاذ لخلا أيتام، كْتافْكم وأولادكم، من اليوم تهجم عليها كلاب المنصري الخاين».

كانت مهنة العطارة هي العمل الوحيد الذي يجعلني أسمع كل أخبار الشاوية في زمن الطاغية، المسمار، الذي نصب نفسه قائدا على كل الشاوية في نفس اليوم الذي قتل فيه زمن الشاوية بعدما حلمنا به جميعا.

اشتريت حمارا، أطوف عليه السهول المحترقة، فأحترق في اليوم مرات كثيرة، ثم أنهض من جديد. لا، بل تنهض ذاكرتي فقط من رمادها، وتواصل المسير. هل أندب خدي أم خدود الشاوية؟، إنها شاحبة من هذا النزيف المروع مثل شحوب المزمزية بحزنها الجليل، بعدما أجهضت فرحتها، قابعة مثل أي فلاحة مات زوجها وبقيت أنا أبوها الذي شَمَتَ فيه الزمن.

ما الزمن؟ ... الإجهاض، الموت، المفاجأة، الضيم الغائل، بل الزمن هو اللحظة الرائعة التي لا تكتمل. النَّفَسُ اللامكتمل. العاصفة التي قبل أن تعصف بكل الزوائد القديمة، سرقها، من هيجانها، بئر مردوم، فامتصها إلى داخله ليخنقها، وتركنا ننتظر العاصفة المسروقة، والآن ستحيى كل تلك الزوائد والفزاعات وتدوس سنابل القرنفل البهية، تدوس ذاكرتي العامرة والخربة، وتقطع الرحلة المقدسة التي تحولنا إلى حطبها ورمادها.

زمن الشاوية صار مثل زرع الفطرة مختلطا وشائهًا ،لا حدود لاختلاطه كما لو أنه جزء من حسابات الكاشوش التي يحتفظ بها كل واحد لنفسه في ساعات العبث.

منانة وهتهوت لأيام معدودة، أسرد عليهما الأخبار، وحينما نتعب، أخرج للحطب، وأسهر في غرفتي مع هتهوت.

تركنا لنا من المال ما يكفينا ثم دفنا الصندوق الملئ بالذهب واللويز

في الزريبة.

حطبت ذكرياتي ثم ربطتها، وحطبت الحطب للمزمزية وتمنيت لو أني عشت حطابا حتى أجمع ما أحرق به هذه الشاوية، فأنهي التاريخ عند مقتل الشهيد القائد علي الشاوي، ثم أغسل الأرض من أوساخ المنصري وكل أتباعه.

الأيام تجري، دون تفكير في استرجاع مُلك فقدناه، لأننا لا نملك قائدا يمكنه أن يعوض الشهيد... أنا، لا، أبدا لست سوى فقيه عادي لدوار غريب في الشاوية، ثم تحولتُ إلى حلم في زمن الشهيد، واعتبروني مُفتيا من المفتين العشرة للمخزن المركزي، وقاضي الشاوية وراويها وعالمها ومؤرخها وفقيهها وأشياء تكمل مشهد الحلم المذبوح... ثم الآن عطارا، ولا أعرف ماذا سأصبح غدا وبعد غد. لا يمكنني أن أحكم هذه القبائل الملتهبة، أما هتهوت فهو فتى صغير، لن يستطيع أن يصمد ليلة واحدة وسط اشتعال المؤامرات والسيبة... من بقيَ إذا: الطاهر أم خاله؟

الشاوية الآن هي رئة واحدة تلهث، مشقوقة، مثقوبة من كل الجهات، تلهث بشكل مرعب، زبدها فائر ومتساقط. لو كانت بديهة الهداوي حية لشبهت هذا الزمن الفائر بقرقارات الحجام، حجامياته القصديرية، الملأى بالدم الخاسر.

***

وفي تلك الأيام مرض الناس بسعال كثير، فأحصي من مات في هذه المسغبة عدد هائل لم يستطع أحد أن يضبطه، تلته ريح عاتية جنوبية هبّت عظيمة، استرسلت نحو خمسة أيام ليل نهار، والعياذ بالله، فأسقطت دورا وأقلعت أشجارا كثيرة، وماتت بالردم خلائق وبهائم لا تحصى.

***

حقول المزامزة تحصدها عصابات المسمار بالنار وحقول أولاد سعيد وامزاب لن تكفي طمَعه، فيخطف النساء والبهائم، والعصابات تحلم بأن تصبح الشاوية دويلات صغيرة داخل قفطان الجحيم، حيث الرؤوس تقطع بالعبث. ومجانين قاموا بدعوات التوحيد حول زاوية تداوي من الجرب، وأخرى تداوي من البرص، *وثالثة من الجهل والسعار، ورابعة من الوسواس الخناس، وخامسة اكتشفت أن المجاديب هم أهل الله في هذه الأرض فأطلقوا شعورهم على الأكتاف، وساحوا يتحدثون بالرموز، وسادسة قالت بضرورة حجاب المرأة والرجل والطير والشجر والأفعى، وسابعة حشدت سيوفها لقطع يد السارق والمارق، وثامنة دعت إلى التحرر من عقد الماضي وتقاليد الأجداد، ورفع التكلفة الإباحية بين الرجل والمرأة والغلام. أما التاسعة فهي من فقهاء غريبي الأطوار ينتقلون في اليوم الواحد بين كل الفئات والزوايا، دون أن يبيتوا في واحدة.*

«تسعة رهطين» سيلدون في اليوم الواحد رهوطا مختلفة الأشكال والألوان فسبحان الواحد القهار، الخالق الغفار، القادر الباري، الشديد العقاب.

هكذا صارت الشاوية تنقسم إلى ثلاث فرق غير متساوية: اللصوص والدجالون والعطارون. فماتت قبائل عن آخرها وهاجرت دواوير أخرى، مخلفة وراءها هرولتها السريعة. (سيأتي المؤرخون بعد قرنين من الزمان، ليلتقطوا هذه الهرولات، ويضعوها بعناية في مركز فاخر للتحف الوطنية الأصلية التي تدل على حضارة شعبنا)..

نصب المنصري نفسه قائدا كبيرا بعدما ادّعى في الناس أنه خليفة القائد علي الشاوي الذي قتله طيشه. كما أرسل الهدايا الثمينة إلى السلطان الجديد بفاس دون أن يعرف الواحد منهما الآخر ثم يكتشف أنه لابد من بعث هدايا أخرى إلى مراكش وورزازات وتادلة... فقد عمّت الفوضى، والمخزن أصبح مخازن، فصاح في نفسه لماذا لا أكون، بدوري، سلطانا على الشاوية؟

في مدة وجيزة، زرع آلاف المسامير داخل القبائل فشجّع على العُهر كوسيلة للتصنت في ما يفكر فيه كل شاوي لحظة ثمالته، كما سمح بالترخيص

للشيخات، وضاعف من القدمين الذين يعملون سريا، وهم يشتغلون في الأسواق وفي العطارة والفقه.

لم يجد المنصري أمامه غير هذا الطريق حتى يظل جلادا في القصبة، وبداخله رغبة تدميرية لمحو كل آثار علي الشاوي، لهذا فقد جمع شرذمة من الفقهاء الذين لا يحفظون غير كتب السحر والأبراج، وأفهمهم أن يتوزعوا في جهات الشاوية للشرح والتفسير. فشرحوا للناس بأن الثورة هي الفوضى، والديمقراطية هي قطع الرؤوس على القرطة. أما الحرية فهي الفساد. وكل ذلك شرك بالله والرسول الكريم.

إنه يصرخ في كل القصبة: «آه لو تطول يدي سأحرق الآن المزاب وأقطع ناسها، ولو تطول يدي الأخرى لزقت أكباد المزامزة وأولاد حريز».

وطالت أياديه القبائل فأحرق الحقول وسمم المواشي وقتل الشيوخ والأطفال، كما صلب الشباب وعلق رؤوسهم بباب القصبة وعلى طول سورها كما نثر الجثث في كل مداخل سطات.

***

«في الأيام الموالية، كسفت الشمس كسوفا بينا، فاسوَدَّ جُرمها كله، وأظلمت الدنيا بجميع آفاقها حتى بدت النجوم في السماء، ومكثَ الأمر كذلك زمنا من النهار، بعد ذلك هبّت عواصف من كل الجهات فقامت شجرة زيتون عظيمة، وهي قاعدة كانت قد اقتلعتها الرياح من جذورها منذ شهر فبليت، ثم تحركت واضطربت، وقامت قائمة، ورجعت إلى منبتها الأصلي، فلقحت من أسفلها واخضرت أوراقها، وبعد أيام أخرى فعلت شجرة خروب مثلها، لكن الذين قتلهم الجوع أو الطعنات الغادرة... لم تستطع أية عواصف، بعد، أن تعيدهم إلى الحياة لأنهم حتما سيرفضونها ويفضلون ميتتهم تلك».

***

استقدم المنصري اللصوص والقطاطعية وبعض أفراد قبيلته من مناصريه، فوزع عليهم المناصب، بعدما رفع من المكوس الشهرية والفصلية والسنوية، وتسليم الزكوات للقصبة، فتوضع بمنطقة تسمى الكنانيط، ملآى بمئات المطامير، زمن الشاوية الثاني، الناس فيه تحفر البئر فتجد الدم بدل الماء.... ضاعت المدارس وضاع العلم والخلق، لأن العصابات والحروب القبلية أباحت الاغتصاب والفجور، فضاع الكتاب وسادت أخلاق الكلاب وشراسة الذئاب فلم يسلم أحد من شرر أو شطط، وقامت النعرات وأحييت الحسابات فقتل الجار جاره واستباح ماله وبناته، وفتك الابن بأبيه، والأخ بأخيه فضاعت آخر قيم الشاوية وأحلامها، وقال شيخ مرَّ من هناك: «لقد عمَّ الفساد البر والبحر». فنطق تابعه: «حتى عندنا في الجبل نعم آسْ».

بعد ذلك أذاع المنصري المسمار في الناس أن الطاعة فرض عين للقصبة التي سيسميها بدار القايد حينا، ودار المخزن في أحيان كثيرة، كما أشاع في أهل الشاوية أن عين دار القايد لا تنام، وأن حبة جاوي كتبخر البلاد.

مازلت أذكر المنصري جيدا. في أول عهدنا، كان ذلك في إحدى الصباحات، ونحن نتفقد العرصة التي سنحولها إلى جنة لنا، اقتربَ منا شخص ضعيف البنية في حجم جذع شجرة الصنوبر، له بحة خفية كاللمسة، تظهر بوضوح كلما تكلم طويلا. دفعه الحراس عنا. لكن الشهيد دعاهم بأن يتركوه حينما صرخ بأن لديه كلاما خطيرا لسيد القايد. فأخذناه إلى القصبة.

- ماذا تريد يا مسمار (وكانت أول مرة يناديه سيدي بهذا الاسم الذي استوحاه من قامته المسمارية، ثم للدلالة على وظيفته التي عيَّنه فيها).

تحدث المسمار المنصري بتزلف كبير إلى الشهيد عن أشخاص يتربصون به لقتله... وقد خططوا له ذلك أثناء قدومه المقبل للعرصة.

أدرك الشهيد كلام المنصري حينما ضبط فردين في البداية ثم ثلاثين فردا مدججة بعد ذلك، مختبئة وسط الأشجار. ولما سألتهم قالوا بأن رئيسهم هو شخص من دكالة، فسلمناهم للمسمار الذي قتلهم. كما قال - دون مشاورتنا.

الآن أفهم أن تلك المؤامرة لم يدبرها سواه.. وأفهم أيضا أنه طوال تلك السنوات كان يخيط قفطان مؤامرته.

جيدا، أذكر أنه حينما أردنا أن نجعل أهل الشاوية يحكمون أنفسهم وفق ما جاء به سيدي علي الشاوي من فرنسا، المنصري وحده من داخل القصبة، الذي تمارض ثم ادعى الاتفاق معنا فجاء بالعديد من الاقتراحات التي رفضها الشاوي.

رفع لنا تقريرا بالكيفية التي سيتم بها اختيار مجلس الشورى والنظر في المظالم، وكان تقريرا يدعو إلى التزوير واقترح أن يكون فيه من هُم من رجالاته، كما اقترح مسخ النتائج عن طريق زرع مساميره غير المعروفين وسط الدواوير، وسيساعدهم بالمال والزرع والبهائم والوعود لتوزيعها على الناس قصد تزكيتهم وقبولهم. هكذا طلب القائد من المنصري أن يمده باللوائح التي يقترحها كي تكون مجلس الشورى، أو مجلس ممثلي الدواوير والمشيخات.

سهر المنصري ثلاث ليال ثم عاد باللوائح التي لم يراجعها الشاوي وإنما طواها ووضعها بقُبِّ برنوسه، وحينما دخل إلى القبة سلمني تلك الأوراق وقال لي إن هذه الأسماء التي دوَّنها المنصري هم رأس المقاطعية ولابد لنا من قطع دابرهم. آنذاك نلتفت إلى المسمار.

كنتُ أعتقد أنه سيعاوننا وإذا به يرأس عصابة هو قائدها دون أن ندري. انشغلنا ثم تراكمت انشغالاتنا ونسينا اقتلاع العلة إلا أنْ غافلنا ونحن الساهون.

قبل ذلك جاء مشتكيا إلى القائد يقول له: لماذا، الجميع يكرهني. فبادره سيدي علي قائلا: «وأنا منهم أيضا... فلا تشتكي لأنهم لن يحبوك أبدا ولو

لبستَ «جِلد الروام» (*)[3] يا مسمار». لكنه لبس جلد الخديعة وغدر بنا.

***

صاح المنصري:

- يا أهل الشاوية اللئام، إن الحرية أصبحت حريكة ستحرق الأخضر واليابس ومن دخل دار المخزن فهو آمن.

***

وفي تلك السنة حبسَ المطرُ فعطشَ الزرع النابت، وبلغَ سوم القمح أربع أواقي قديمة للمد (المد كيله ثلاث صيعات نبوية) وغلت الأسعار وشاهت الوجوه، وتغيرت الخواطر، وتراكمت أهوال وتغيرت أحوال وماتت رجال وغابت أبطال وطالت شرور وقتال، والحول والقوة بالله الكبير المتعال. ومازال الموت الكثير بالجوع في الخلق حتى إنهم كانوا يحملون الناس ويدفنونهم خارج الدواوير في مطامير خاصة، والحفر البعيدة دون غسل أو كفن أو صلاة من كثرة الموتى.

***

هاهي سبع سنوات مرت وهو منفرد في حكم الشاوية. ذبائح مستمرة لا تحصى، يوميا، داخل القصبة. وأفراح دائمة رغم الكوارث الطبيعية التي لن تتوقف إلا حينما أراد أن يصغي إلى ,أذن القصبة، قال له بأن شخصا دخل الشاوية وبدأ يسأل عمن يحكم الشاوية. وأين القائد علي، ولما قالوا له بأنه قتل، بكى وانتحب. وكان يبدو عليه أنه قادم من بلاد بعيدة بلباس وحوائج كثيرة.

٣ - (*) جلد الرُّوَّام :كناية مستمدة من واقع الحيوانات حيث إن النعجة إذا ما مات خروفها الصغير، ترفض أن يرضعها أي خروف آخر ليس من صلبها وهو ما يمكن أن يشكل خطر انتفاخ ثديها بالحليب، فيلجأ السارح إلى سلخ الخروف الميت ووضع بطانته المنسوخة فوق ظهر ورأس خروف آخر، يقدمه للنعجة التي تشمه فتتركه يرضعها اعتقادا منها أنه خروفها أو للذكرى فيسمى ذلك جلد الروام.

- «هاتوه! صرخ حتى ذُعر الصدى.

سمعتُ بعد ذلك أنهم قبضوا عليه وعذبوه لأنه الطاهر ابن الشهيد الذي عاد مخلفا وراءه ثورة وخاله الشهيد.

قالوا له إن أباه كان يملك صندوقا به ذهب كثير. وحتما يعرف أين يخبئه... والحقيقة أن الصندوق هو مسمار جحا، لتبرير التعذيب.

سمعتُ كل هذا فانتظرت مثل المستسلم خبر قتله، ثم عدتُ أفكر بشكل آخر، خصوصا بعدما علِمَت أمه وباقي أفراد البيت بالخبر.

شددتُ الرحيل نحو دكالة، فاتصلت بأخوال وأعمام الطاهر المزمزي الشهيد الثاني، وكان لهم ثقل واسع بدكالة، فحكيت لهم الحكاية، وبأننا نطلب منهم إطلاق سراح الطاهر الشاوي ابن القائد، وصححت لهم الخطأ الذي أوهمهم به المسمار حينما قال بأن ابنهم مات في خديعة حرب ومؤامرة ضد الشرعية، فصدقوه.

حكيتُ لهم الحقيقة والتمست المساعدة على إطلاق سراح الطاهر ثم الانتقام بعد ذلك، فكتب قائد دكالة مولاي احمد الدكالي إلى المسمار المنصري رسالة قال له فيها بعد التحية والسلام:

«نطلب منك إطلاق سراح الطاهر الشاوي ابن حبيبنا، المغدور به القائد علي الشاوي، صحيحا معافى، ولا نحتاج إلى التأكيد على طلبنا هذا».

شمَّ المسمار رائحة قهر آت سيغرقه في حرب خاسرة إذا هو لم يطلق سراح الطاهر. فكر أيضا في كل ما سيفعله. إذا ما طالب باستعادة روح وقيادة أبيه.

- ليكن نفيه إلى دكالة، فنكون قد أرضيناهم وارتحنا نحن.

كان قرار النفس تمزيقا لجرح عريض، وكان في نفس الطاهر لون غربة على الغربة التي تحياها الشاوية في هذا الزمن.

***

كنتُ الوحيد الذي جالس الطاهر، وحكيتُ له في أيام، كل ما وقع وما ننوي القيام به بإذن الله، وجاءت المزمزية وهتهوت ومنانة، فيما بعد إلى

دكالة، فمكثنا أزيد من شهر جسَّرنا فيه كل سنوات الغربة الطويلة بهذا المنفى الجديد.

لكننا حينما أردنا أن نناقش المسألة قالت المزمزية بصوت حنون: «دعونا نعيش ما تبقى لنا، مالنا وحكم الشاوية». تقول هذا، والحقيقة أنها غير مقتنعة به، لأنها رفضت، ومثلها هتهوت، أن يعيشا خارج أرضهما.

كانت رؤانا تختلف بدءا بما كنت أقوله. ذلك بأن نحارب أعداء الله عن طريق الاستعانة بأعداء الله الآخرين: لصوص وغيرهم، ومعنا المال الكافي لتغطية النفقات أما هتهوت فإنه كان يتأمل ولا يرد على أي شيء مما أوحى لنا بأنه معنا في كل شيء في حين كان رأي الطاهر واضحا، بكلمات جديدة علينا. قال إن المقاومة من الداخل هي الصيغة الأجدى، وأننا نقاوم ليس من أجل الشاوية فقط، لكن من أجل الوطن كله، كما أننا نكافح ليس بقصد استعادة السلطة لنا، بل من أجل استعادتها للفلاحين حتى تسود الحرية والوحدة والعدالة ونستأصل جذور الخيانة والعمالة.

لم أفهم ما يقوله الطاهر إلا بعد شروحات طويلة. وأنا أستمع إليه أغرق في الزمن الماضي حينما عاد الشهيد بحماسة وفتوة تكاد تنفجر من كلامه، يلبس قفطان الشاوية الجميل فوق فرجية المنفى والاغتراب والتمزق.

لكنني في لحظة أخرى صرختُ:

- لا يا طاهر، أنت ضيف وفي المنفى بدكالة، فدعهم وأفكارك الجميلة هذه.

- آبا هبوط، النضال في الوطن كله، في الشاوية ودكالة وعبدة واحمر والحوز وتادلة وكل البلاد ومع جميع العباد.

- أنتَ في منفى خارج الشاوية، ونحن بالمنفى داخلها، وكل ما قلته صادق ونحبه جميعا، لكن دكالة سترميك بدورها إذا أنت جمعت الرجال.

- أنا لا أريد أن أشكل زاوية يا عمي، ولكنه تنظيم موجه ضد الظلم في كل مكان موبوء.

طالت نقاشاتنا، ومرت سنة كاملة، والحيرة تنهشنا بين المنفى والتمزق والحصاد الذي تتسع رقعته وسط عهود السيبة، وكنت أزوره في بيته ثم بالجبال والكهوف مع وجوه ناضجة بالرغبة الحمراء مثلما تزوره المزمزية صحبة منانة وهتهوت، فتشتكي الأم إلى الطاهر من أخيه الذي بات يرافق وجوها قاسية.

- لم أخبرك يا طاهر عن شيء لا تعرفه عن هتهوت، وهو سر لا يعرفه أحد غيري والشهيد. (قلت له).

- .....

- لماذا سمى الشهيد أخاك هتهوت؟ سألته.

- .....

- كان بالمزامزة رجل طيب اسمه بارك بوكرن، كما حكى لي والدك، يتبعه على الدوام ثعلب صغير بعينين ثاقبتين يسميه هتهوت، وكان الشهيد يحب بوكرن وهتهوت لأنه الثعلب الوحيد بالشاوية الذي عقد الصلح مع الإنسان.

ساعة وضعت المزمزية، والدتك، وليدها الثاني، كنا في تلك الليلة بالعرصة مع الهداوي الشاعر، وفجأة سمعنا صوت ثعلب فصرخ الشهيد باختناق:

- ألم يحس هذا الثعلب بوجودي... هذا إنذار عهود السيبة من جديد، هدأت من غضبه فابتهج وأنا أقول له:

- كان عليك يا علي أن تفرح لأن هذا الثعلب الذي يعوي هو هتهوت، يُقرئك السلام.

- لحظتها كان مرسول القصبة السري والخاص قد جاء وأخبرنا أن السيدة قد وضعت وليدا، فأسماه على التو، هتهوت.

أخبرته بهذه الحكاية لأنني لاحظت أن هتهوتا هو ثعلب زمن الشاوية بتدابيره، فقد استطاع أن يربط علاقات كثيرة مع أتباع لنا، وبعض الجنود الخصوصيين في القصبة عند المنصري.

لم تزدد العهود إلا قهرا، والسنة العاشرة على الأبواب، اعتقدت الناس أنها العقد العاشر من حكم السمار، ففرت عائلات بأكملها بعد ما اتخذت الليل

فرسا نحو الجنوب أو الشمال، هروبا من الويلات الظلماء، والطاهر يقول لا للهروب، وسنترك عظامنا وجلودنا بالشاوية.

الأتباع يتكاثرون، بدكالة والشاوية، من شرائح متوسطة وضعيفة، ينتظرون الخلاص، والمسمار يبعث برسائله ورسله إلى دكالة يخبرهم بما يفعله الطاهر بأرضهم، فقرروا بعد طول صبر، نفيه. وحينما اختار عبدة، رفضه قائدها مثلما رفضه قائدا أحمر والشياظمة، آنذاك اختار الرجوع إلى رحم الشاوية.

المسمار يتكلم عن الحرية:

في الليلة الأولى، بعد حادثة قتل الشهيد، كان المسمار قد جمع أتباعه، ونصَّب نفسه قائدا على مجموع الشاوية، ثم خاطبهم :

- إن الحرية وَلاَّتْ حُرّيكة، عهد القرطة والمقراطية انتهى وهاكُم عهدنا الجديد: الطربوش ودار المخزن.

ابتدع في عهده، عبر سنواته الثقيلة، احتفالات خاصة به ابتداء من يوم تنصيبه، إلى احتفالين خاصين بالطبيعة، يوم الحرث حيث يأخذ المحراث الخشبي، وقبل أن يدفعه لشق الأرض، يكسر على المقبض ،كُرونة سْخونة، وهي خبز يتم طهيه في الكوانين الطينية.

وفي تلك اللحظات تبدأ الشيخات في استعراض طبقات أصواتهن،نفس الأمر يتكرر في احتفالات يوم الحصاد.. صهد وغناء. أما المسمار فهو كالطاووس التائه، يحمل المنجل ويضع الصَّبَّاعات القصبية، ثم يربط حوله التباندا، آنذاك يرمي المنجل على أعناق السنابل لافتتاح موسم الحصاد.

لن ينسى أبدا، في كل مرة، أن يتحدث عن الحرية كما يفهمها فيترك القطاطعية يتحررون كما شاؤوا يستعيدون الأزمان الغابرة، ناقمين عما ضاع منهم.

الرعب والمجاعة بخّرا كل شيء لاستعادة الآمال.

تسع سنوات من المجاعة زحفت، فلحست كل شيء، ارتفعت الأسعار

واتسعت رقعة السيبة مثل كابوس كان راقدا، فتحول جل الشيوخ والمقدمين إلى لصوص وزعماء عصابات. مات شعب بالنهار وآخر بالظلام، وولد شعب ثالث وسط ضجيج الحرْكات فطعمه زمن الشاوية ضد السكينة والهدوء.

فكر المسمار وقد انفلت الرسن من بين يديه - في السنتين المواليتين - ، أن يتحول إلى زعيم عصابة، خصوصا، وأن امزاب قد أعلنت عصيانها العام.

الحديد يطوق الزمان، المنصري قيد الشاوية بر لا أمان فيه، بحر لا ماء به، طوفان للعواصف العاتية، طرق لا تنتهي.

بعد سنواته هذه، أصبح ذا بنية متوسطة السمنة، مسمار يشق مكانه ويسيل دم زمانه بلا رجفة، يغير لباسه باستمرار كما يغير آراءه وأماكن نومه، وأيضا حراسه الخصوصيين، دون أن ينسى الاجتماع بمساميره المبتوتة، والأخرى المتحركة يجرها دوما عيار الأخبار.

السمع يتقفى الأفقي والعمودي، كما العين تلحس الظاهر والباطن.

- يقولون عنكَ أنك السيد والأب، الحاكم والقاضي، الواهب والآخذ، أدامكم اللّه للشاوية، فأنت بحر هذا البلد القاحل.

- بصوت فيه خيوط رمادية من التوسل، لكنه يعرف أنها الديباجة التي ستليها الفظاعة، سيسمعها بتفصيل مُمل من أربعة مسامير يجالس كل واحد منهم على حِده دون أن يعرفوا بعضهم البعض.

أهالي القبائل القريبة من القصبة أو البعيدة، ستبقى أسئلتها تتناسل في كل فصول الخريف وآخر الصيف، عن القائد القتيل، والفقيه الذي فرَّ بطعناته وعودة القطاطعية إلى فضاءاتهم القديمة، وأيضا رجال المنصري الذين ابتنوا قصبات صغيرة متعددة أسموها، قِبب السلام.

لماذا عاد القهر والموت الآخر، وعادت معهما ستور الليالي الظلماء؟

يسمع المنصري كل شيء فيلتفت نحو حائط القصبة الأحمر يكلم نفسه:

- انتظروا، سنوزع عليكم القمح والتمور والأثواب، انتظروا ولا تيأسوا.

فيرد عليه صدى الأصوات اليافعة.. نريد هواء نتنفس به نحن وبهائمنا وزرعنا نريد البواخر القادمة من البحر والتي أرسلها سيدي علي» .

- انتظروا كل شيء لا تيأسوا...

صوت يتردد دون أن يثق بصدقه أحد وعلى مدى طول السنوات كان براحوه ومساميره والأعيان الذين استفادوا من عطفه يرددون كلامه... أصبح الوعد خبرا يتفكه به الناس عساهم أن ينسوا ملامح ما خيم عليهم وجثم.

قال رجل حمداوي لعطار قادم من أولاد بوزيري يبحث عن جلود الثعالب:

- هل وصل براح المسمار إلى هناك؟

- ولماذا يصل مادام لا أحد يهتم له!

- أتعرف أن القيد المنصري - كل صباح - يصيح فينا باش نكسكسو على الأرنب اللي في الدومة، والدومة فيها الحناش والعقارب والأفاعي.

- في أي وقت كان المنصري عندو كلمة!

- أفكر عندما كنت صغيرا، كان جدي رحمه الله، مع الجماعة، وكان شيخ القبيلة لحظتها قاطع ولص يعتدي على كل سكان الدواوير التي هي تحت إمرته، فاجتمعوا واتفقوا عليه اتفاقا يقضي بعزله وإبعاده بعد تجريده من كل ممتلكاته، ولكنه أحس برجليه ولأت في العافية لأنه لم يكن قد تهيأ لهذه اللحظة، فجاءهم باكيا نادبا، وقد طلى وجهه بالتراب معلنا التوبة، فذبح الثور وجمع الفقراء متصدقا عليهم بالطعام والمال.

سامحوه جميعهم إلا جدي الذي لم يسمعوا له فانعزل ثم دخل القبة التي لم يعد يخرج منها.

ربط أحد كلابنا ثم أخذ ذيله ووضع عليه جبيرة من القصب والتدُّقَّه (عجين من التراب الأبيض شديد التماسك)، وقد عجبنا للأمر لأن ذيل الكلب لم يكن منكسرا أو به أية رضوض، ولكنه كما سيفسر كلامي، أرادَ أن يجرب جعل الذيل لا يهش ولا يبش. طبعا لم نفهم أي شيء.. وحده جدي والكلب والتدقة من يفهمون الحكاية.

سنتان مرتا، حدثَ فيها أن الشيخ عاد إلى غيه بشكل فاحش وقد استعان بمجموعة من السياب والقطاع جعلهم حراسا حماة له يلتهمون الأخضر واليابس، فلم تعد للأهالي قوة عزله وردعه أو اتخاذ أي إجراء ضده.

لقد تمسكن حتى تمكن. قال جدي وقد خرج بعد سنتين يجر خلفه كلبه المحير، بذيله الساكن وسط الجبيرة، كسرها أمامهم وتفكير القوم قد تجمع حول ما سيكون عليه الذيل بعد سنتين في القالب. هل يتخلى عن تلك الحركات الزئبقية ويعود إلى رشده الساكن؟

تكسرت الجبيرة وعادت ترابا كما كانت، فأحس الذيل بذيليته ثم تحرك وهش على كل ما تجمع من تخمينات القوم وأسقطها منهارة ذابلة مطأطئة مخذولة.

-ألم أقل لكم أن هاذ ذيل الكلب ديال الشيخ، لن يعود إلى رشده ولكنكم انسقتم وراء الخديعة، حتى أتى الله عليكم بشرّين بعدما تخاذلتم في اجتثاث شر واحد. كنتُ أقول لكم ما سيقع ولكني كنت كمن ينفخ في قربة مقطوعة.

الشيخ الهبطي يحكي عن المجاعة الكبرى

أنا الشيخ الهبطي، العبد الفقير إلى الله.
سبحان الذي علمنا وجعل لنا وعاء نتذكر به عيوبنا..
وحده الله الذي قسم الشاوية إلى أزمان.
وحده الله الذي جعل في كل زمن نارا ودخانا
وجعلنا حطبا، وآه من حطب الشاوية وحطابها..
وقد سمعت أمرَّ مما رأيتُ وأبصرتُ أقسى مما تأملت..
أخفيتُ الكمد وأظهرت الجلد. حتى أن كل من سيسمع هذا الكلام يصير الضياء في عينيه ظلاما:

في زمن الشاوية كانت الطامة بالسهول كبيرة أورثت القلوب ألف حسرة، حيث انحبس المطر وجاء القحط، وعظمت المجاعة، وصار الموت مثل

الضحك، فأصبح الناس يتأسفون على موت الإبل ويسعدون لموت البشر، وكثرت السرقات، وأكل الناس الميتة والجيفة والآدمي والأفاعي والكلاب.

صارت الشاوية مثل حبلى أرادت أن تضع وليدها، فنزلت مصارينها ورئتها وقلبها وبقي الجنين يتخبط سافرا.

الناس عاثوا فسادا، فصار القتل لعبة تتكرر بدون أن ينتبه لها أحد، وكان الفساد في الدواوير خلال الصيف والربيع، فواقَعَ الابن والأب امرأة واحدة، وعشقت الفتاة أخاها، وتعرت المرأة للغريب، فسلط الله على الشاوية غضبه حتى يدركوا قيمة الأجساد الفانية، وهي لم تعد تساوي كمشة بَعْر أو بَرّيوْ، ويعتبر الذين دلقوا الحليب ورموا اللحم للكلاب أو داسوا على الزرع بأقدامهم دون بسملة.

سيعرفون أن هذه النعمة التي لم يقدروها في يوم النعيم، هي الاختبار الرباني القاسي لعبيده بالشاوية.

خرجت الناس إلى المساجد في العام الثاني والثالث والرابع، يلبسون الجلابيب مقلوبة، حُفاة جُعاة، دموعهم على خدودهم الكالحة يطلبون الاستسقاء، بعد ذلك نسوا وابتدأوا يتعوّدون على الحياة بدون فلاحة، وبدون مطر أو حياة، وإنما بالموت والألم والسهو، والغريب في كل هذا أن الناس بقيت بمكانها لم تفكر في الهجرة رغم الأمراض التي كانت تحصد الأرواح بالمئات والآلاف، وصاح البراح بالامتناع عن أكل لحوم البشر المريضة التي تنقل العدوى، فلم يستمر صياحه سوى ثلاثة أيام بعدها اكتشفوا عظامه مرمية، وقد تبين للجماعة أن البراح صحيح معافى يملك قدرة هائلة على الصراخ بأعلى صوته طول النهار، ثم تذكرتُ ما قاله مُبل العظيم لعبد المطلب: «أينع النخل في يترب وحل الجوع والغلاء في المغرب».

وها هو قد حلّ فلم يعد أحد يناقش شيئا آخر سوى أخبار المجاعة، فيتحدثون بأن لحوم سكان أولاد سعيد ألذ وأطيب من لحم المزابي، وأن العراعير أكلوا لحوم كل فقهائهم قاطبة حتى يفعلوا ما شاؤوا دون تأنيب من أحد وقيل أنهم سمعوا خلال الليل، من بطونهم، ضحكات مديدة وصل صداها إلى سكان سيدي العايدي الذين اعتقدوا ذلك زلزالا.

أهل الشاوية باتوا يتحسرون على زمن الموت بطقوسه المقدسة، بكاء ونحيب ثم دفن وتلاوة وعشاء ليت والأربعينية والذكر الطيب، تذكروا كل هذا وقد أصبح الميت كأنما ذهب لينام.

أما اللصوص فهُم أول من استهدفهم الناس بالسرقة، وتحول كل شيء إلى عبث فملَّ الناس من الحديث عن لحوم الآدميين، وكبُر الأطفال وكبر معهم الصمت والسهو، وهم لا يعرفون القمح والشعير إلا بالسمع.

فجأة تسقط الأمطار، فقالوا ماهذا الذي نزل علينا من السماء يا آباءنا (قالت المزامزة).

فردت امزاب: هي دموع لرثاء شهداء تسع سنوات.

حرث الناس، لكن جيل الأطفال حينما قدموا لهم الخبز واللحم واللبن، قالوا هو مُرٌّ يا آباءنا، أوراق الشجر ألذ منه.

إن الله يمهل ولا يهمل، وفي مجاعة الشاوية عبرة لمن اعتبر.

والله يغفر لي ولكم، شهد بها الفقيه العالم العلامة، النزيه ديباجة الدنيا، وتاج المكانة العليا، الماجد الأنجد، الفاضل الأسعد الشيخ الهبطي الشاوي المظفر المؤيد، شمس الدنيا وبدرها الأزهر، تاج الشرف الأثيل.

***

انقضت سنوات المجاعة وعادت الأشياء إلى طبائعها، فارتعب المسمار وأحس بمدى غفلته حينما سمع بوجود هتهوت أيضا أخ الطاهر الشاوي وأختهما منانة والشيخ الهبطي وأتباع لا تحصى تقود حرْكاتها دائما، وقد أخرجوا الصندوق أيام المجاعة، وانتقلوا إلى دكالة وعبدة والشياظمة والحوز من أجل شراء الآدام والزرع، وحينما جلبوه كانوا يوزعونه مجّانا على الفقراء والعائلات التي تعول الرضع والأطفال والشيوخ وأيضا الشباب من ذوي القدرة على التجنيد ضمن صفوف الرحى كما سيسميها الشيخ الهبطي.

وفي تلك السنوات، كان المسمار يعيش حياة الترف، فيغدق على أتباعه وجنوده من أجل التصدي للحركات المعاكسة للطاهر وهتهوت والهبطي، ولكنه عجز عن ضبط مكانهم مثلما عجز عن تحديد تحركات هتهوت والطاهر. ولما حاول مرة الهجوم عليهما بسيدي حجاج وقعت معركة عادت معها فلول

القصبة بموتاها وخيبتها مما زاد من رعبه وانهياره.

بصعوبة كبيرة ركب الشيخ الهبطي بغلته نحو السوق. دخل فاشترى قربة صغيرة من القطران، لكن نظراته استعلت فجأة نحو قيطون حجام، فأسرع مقتربا منه يفحصه متعجبا من الشبه القوي بين الحجَّام والشهيد الهداوي.

نزل بصعوبة أمام القيطون فدقَّ الوتد وربط بغلته ثم دخل عند الحجَّام، جلس فوق صندوق خشبي ،بعد ذلك أزاح شده عن رأسه:

- الدم الخاسر، (واستطرد الهبطي في كلام بعدما قام الحجَّام يبحث عن أدواته).

- إنك تشبه حبيبا لي مات. تشبهه كثيرا حتى أني لما رأيتك ظننت أنه لم يمت وإنما استغفل الموت كما كان يستغفل الحياة.

أخرج الحجَّام قرقارات قصديرية شبيهة بقرن الثور، ذات رأس صغير هو الذي يمتص منه الدم، أما الفم الآخر فهو كبير يوضع على القفا بعد جرحها ثلاثة جروح صغيرة في مكان معلوم يصيب بعض العروق، ثم يضع القرقارتين.. الأولى على اليمين والأخرى بالشمال، فيعمد الحجام إلى مناوبة المص منهما بشكل بطيء يجعل الدم الخاسر ينسحب من عروق القفا بالحجَّاميتين، ويتجمع في عنق القرقارة المنحدر.. آنذاك يشعر الرأس بخفة غريزية.

كان الحجَّام في كل الوقت يتكلم عن الدم الخاسر الذي ابتلى الله به أهل الشاوية دون أن يجرؤ على الحديث عن المنصري لأن الخوف صار جزءا من الهواء.

شربا معا برادا من الشاي، واتفقا أن يزور الحجَّام، الشيخ الهبطي مرة في الأسبوع في خيمته لحلق شعره والجلوس معه، ثم نقده قطعة ذهبية من عملات القايد علي الشاوي، وودعه وهو يضحك من فرحة طارئة.

***

رياح الكبر دبَّت على جسد الهبطي وهو بأولاد حريز فلم يعد يقوى عل التنقل، ولكنه قاعد ينسج للأخبار تفاصيلها، ويجالس الطاهر حتى يحدثه بكل

الأشياء كلما عاد، متذكرا زمن علي الشاوي بلياليه الطويلة وأحلامه التي هي قفطان منفى الحاضر.

تهاطلت الأمطار في تلك السنة، عنيفة، غزيرة، فلم ينهض كعادته، ليجالس منانة وهي تهيئ الفطور داخل القبة، تساعدها حليمة تلك الفتاة الحريزية، الرقيقة التي تزوجها هتهوت، يتيمة الأبوين. تربت معهم منذ استقرارهم بأولاد حريز.

تعوَّدَ الشيخ الهبطي القيام للصلاة فجرا ثم الجلوس للفطور معهم... يحكي لحليمة عن هتهوت، فتسأله دائما «أين هو الآن؟» يبتسم لأنه كان يقول لها، قبل زواجها منه بأنه تاجر يسافر بالبضاعة من فاس إلى مراكش عند أخيه الطاهر. والآن فإنها تعرف كل شيء، ولكنها ألفت مساءلة الهبطي عنه والذي يقول لها:

- إنه يبحث لك عن قفطان الشاوية العجيب.

- متى آعمي الهبطي، متى آمي المزمزية؟

كان التعب باديا على قسمات الشيخ الفقيه، نظراته شاحبة، ولكنها ستتقد، حتما، لحظة يدخل هتهوت أو الطاهر فيخبره أن الرحى قد طحنت فلول عصابات المسمار المنصري، وأنه بعد امزاب وجزء من المزامزة، المذاكرة، تنضم أولاد بوزيري إلى حركات التحرير.

الرحى كبيرة ودوراتها فادحة في زمن الشاوية المتقلب بطواحينه المفضوحة والمتسترة، أزمان تولد من المطامير، وآثار الظلام، وغُبار معارك مرئية وأخرى وهمية.

مرة أخرى، البواخر تزحف فوق السهول البورية، قفاطين المنافي، ثعالب تجرُّ المنادف ودمها المتقاطر، وحركات هتهوت والطاهر وأتباعهما تنسق في ما بينها وتتهيأ للنهاية، أما المنصري وجماعته فقد باتوا هم الأولياء الجدد في زمن متعفن على غرار آلاف القبب بسدراتها ونبقها، بشطحاتها وحكاياتها الأصلية والدخيلة.

فمنْ يُخَمّنُ مِنْهُمْ بالمشهدِ القادم؟
وَحْدَهَا العَوَاصِف.

كَشْفٌ بِمَخَابِئ الحكاية

I- الرحلة أو عشر نقط من أجل فهم ما جرى.....5

II- قال علي الشاوي 43

III- قفاطين المنفى.....83

IV- مناجل حديد، سنابل قرنفل.....95

V- وحدها العواصف.....113

صدر للمؤلف

- مساء الشوق. ط1 - 1992.
- زمن الشاوية. ط3 - 2011.
- رائحة الجنة. ط1 - 1996.
- مجازفات البيزنطي. ط2 - 2010.
- أنا أيضا. ط1 - 2010.
- لا أحد يستطيع القفز فوق ظله. ط1 - 2010.

■ تؤسس رواية شعيب حليفي (زمن الشاوية) لنفسها، ولنا، ما يشبه «رؤية زمنية» خاصة، فيها يتم ابتعاث ما مضى لمناهضة ما هو قائم، وخلالها يُحاكِم تاريخ عابرِ تواريخ تبدو ممتدة مقيمة، وعبرها ترتحل التجربة بين هموم وطموحات بعينها، تنتمي إلى أزمنة مرجعية مسماة.

حسين حمودة

■ هذه الرواية الساخرة المحمّلة بآثار الهول والرُعب والخراب والرّغبات والأحلام والوجدان الذاهب إلى الانكسار دوما (...). في «زمن الشاوية» يستمد الكاتبُ مادّتها التخييلية من النصوص التي استعصت على النسيان وأبَتْ أن تنسحب من ذاكرة الحاضر.

محمد علوط

الغلاف من تصميم: الفنان التشكيلي بوشعيب خلدون

RABAT NET MAROC

30 درهما